رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية





قصص قصيرة

فاطمة محمد شنون

العبيكان
obeikan

رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية



المفسدون في الأرض

قصص قصيرة

فاطمة محمد شنون

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شنون، فاطمة

المفسدون في الأرض./ فاطمة شنون.- الرياض، ١٤٣٠هـ

٢١٠ص؛ ١٤ × ١٢سم

ردمك: ٣-٩٢٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ١٤٣٠/ ٨٣٩٠

رقم الإيداع: ٨٣٩٠ / ١٤٣٠

ردمك: ٣-٩٢٩-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



ألم هو أم غضب؟

إنه كلاهما...

لأن العزيز يتألم في زمن الصغار،

وألم العزيز غضب...

وغضبًا ينبغي أن يكون أم عملاً؟

إنه كلاهما...

لأن المؤمن يغضب إذا تطاول الفساد،

وغضب المؤمن عمل...

فيا أيها الألم...

كن غضبًا

ويا أيها الغضب...

كن عملاً

لنبني الحياة كما أرادها اللّٰه

عندما استخلفنا في أرضه؛ لنعمرها

بشرعته ومنهاجه...

فاطمة

رمادي الذي أبعث منه

حالة ما بين النوم واليقظة، قبل صلاة الفجر، متاهة لزجة مرهقة، قلما أستطيع منها فكاكاً...! أحاول ترتيب أفكاري وتحديد أولياتي لهذا اليـوم... هـذا إذا لم يكن ثمة حدث مسيطـر، ينتزعني بعنف من تلك الحالة، ويستبد بي، مندفعًا من مرجل رأسي فقاعات كبيرات، تتزاحم ثم تتفجر على السطح، مطيحة بكل شيء...

أتململ... ألتجئ إلى الركن الأثير الوثير... الاتصال بالله... حدة تزاحـم الأفكار وتداخلها تخفت قليـلاً... لكن الذكر يبعثها من جديد، وتضـج أقوى، فأقـوى... وأكتشف أن الفقاعات الكبيـرة قد عادت إلى الانطلاق والتفجر على السطح بصخب وتحدٍّ...

امتحانـات الأولاد النصفيـة... المجموعـة القصصيـة التي أضع لمساتهـا الأخيـرة... البرنامـج التلفازي الذي ينبغـي تخصيص وقت لمتابعتـه... العيـد القادم، وشؤونـه التي لا بد من الحـد الأدنى منها، والهاجس الموجع القاهر... ما يجري من حولنا...

وأهـرب شلاء عاجزة إلى ربي من جديـد.. أسبح ضد تيار الهموم والأفكار، والمشاغل، والفرح.. هذه الكلمة الممسوحة الوجه! يخيل إلي أحيانًـا أنها لا بد أن تكون موجـودة بطريقة ما.. أبحث عنها، وقد أحنّ إلى لحظاتها اليتيمات المتباعدات كشجيرات الصحراء...

الضباب يحاصرني في عملية ترتيب أفكاري... أبحث عن الأوليات من جديد.. عن الأكثر أهمية.. تنبجس صور مما كانت تبثّه الفضائيات ليلة أمس في مخيلتي، كما تتوالد القطرات من بين شفتي النبع، تفور وتتراكب وتسيل وتنداح بحيرة، ثم بحرًا طاميًا لا حدود له...

الشاب المحمول على نقالة، يسرع به صهاينة في لباس عسكري، وصوت المعلق يقتلع أجزاء وراء أجزاء من قلبي: ثم تبين أن الرشاش لعبة أطفال، وأن الفتى مختلّ العقل...

شجرة النخيل الضخمة، التي أحسست برغبة قاتلة في عناقها، والبكاء حتى الموت وأنا أحتضن جذعها.. شجرة النخيل في بغداد، ووميض القذائف ودويها يتقاطر على الصدر كالحراب المسمومة المتشفية..

جليد العجز ولهيب التمرد يصطرعان حتى التفاني.. لماذا أنا عاجزة من فعل أي شيء؟ طبعًا ليس لأنني امرأة.. فليس من أعدّهم رجالاً بأحسن مني حالاً.. الاستسلام واقع أمقته وآباه، ولكنني أعيشه، أعيشه برغم مقتي وإبائي ورفضي.. وتغتلي أحاسيسي من جديد.. عشرون مرة كل صباح تفور تلك الأحاسيس، وتضج تلك الأفكار.. لا بد أن في إمكاني أن أفعل شيئًا.. مادمت مكلفة فلا بد من فعل شيء...

وتصدع روحي: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، ومن قاع المخيلة القصي يلوح شبح فكرة مقيتة، فأهرع إلى ردمها بكل ما يزدحم بالذاكرة، ولكن عنادها يهزمني دائمًا، وينتصر للسؤال القاتل: أو لسنا بمؤمنين؟! ذلك كلام الله، كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فما ذاك؟!

أتقلب.. في مضجعي الشائك الجافي.. أحس طنينًا فظيعًا في أوردتي كلها.. وأهرب مخدرة في محاولة عفوية لإنقاذ الذات.. أفزع إلى ملجأ «ما يجب».. علي أن أكون عملية، أن أقوم بعمل ما، أي عمل كان أفضل وأجدى من هذا الاحتراق المجاني غير المجدي...

هكذا أبرر هربي من أفكاري، التي بلغت حدًّا من الإيلام لم أعد أطيقه.. الامتحانات، وما يتطلبه العيد الوشيك.. هناك استعدادات ينبغي الفراغ لها.. وتحاملت على غطاء مرجل شعوري، أحكمه بكل ما أملك من قوة، وأنا أمزج مرارتي، ما يسعفني شهد الأحلام من متعة جلب السعادة إلى أسرتي، وابتسامة الفرح إلى أولادي...

ألوح، بدمعة تغور، حتى تشطر القلب شطرين، للشاب المحمول على النقالة.. لشجرة النخيل في بغداد.. لإيماننا وكوننا الأعلين. وأنهض؛ لأمارس القهر اليومي.. لأصنع حلوى العيد!



قهوة ونشرة أخبار

خيوط الشمس الأولى تتسلل عبر زجاج واجهة المطبخ، ومؤشر الفرن الصغير يصرف الثواني تباعًا لإعداد كوب الحليب الصباحي.. المقاعد الحمر، والخزائن الجوزية توقظ دفء الشعور، وذكريات الجذوع الهرمة في غابات فاس العتيقة.. وعساليج شجيرة العنب، التي تتدلى من إفريز الباب المفضي إلى الشرفة، تعب الشمس الوليدة، بنهم يبعث النشاط والهمة.. وعلى المنضدة الصغيرة ينتظر كراس وقلم، وإناء مكور، تفور منه زهيرات بيض وحمر. إنه الصباح كما أحب، وقتي.. وقت القلم...

صفير الفرن يؤذن بغليان الحليب. استللت الكوب، وأضفت إليه ملعقة من القهوة المحضرة، مظهر الرفاهية الوحيد الذي أصر على الاحتفاظ به.. تضوع في المكان عبير حميم.. نظرت إلى الساعة، وأنا أجلس إلى المنضدة، السادسة والنصف.. موعد موجز الأخبار، مؤشر المذياع عن يساري مثبت على إذاعة لندن، قاطرة الكذب كما أدعوها، والإضاءة اللطيفة تجلو لعيني سطح المنضدة الأحمر، بكراسه وأزهاره وكوب الحليب.. والقلم.

الرشفة الأولى غالبًا ما ترافقها دقات (غرينتش)، فلا بد أولاً من إطلالة صغيرة على العالم.. أعرف سلفًا ما يحمله إلي المذياع،

علــى الأقل أعرف أنه سيكــون مؤلمًا.. فقد أعطتنــي مواصلة الاستماع خبرة بأساليب محطات البث المختلفة وغاياتها، وتذكرت ما قيل ويقال لي دائمــا: لا تعولي كثيرًا على ما تسمعيــن وتشاهدين.. كلهم يكذبون، ويشوهون الحقائق لخدمــة أغراضهم.. ومللت ترديد الجواب.. أعرف ذلــك.. لكــن الاستماع إلى الكذابيــن والدجالين يولــد لديك خبرة في معارضــة الكذب بالكــذب، والدجــل بالدجل، فتصل، نتيجــة لتحليلك الشخصي، إلــى شيء من الحقيقة. ثم إن المتابعة في هذا الخط تبرز الحقائق مهما بذل في طمسها من جهود...

صــوت المذيــع الرخيم ينطلق بالتحيــة والتمنيات بصبــاح سعيد! أحتضن القلم براحتي؛ استعدادًا للحوار.. ربما بعد موجز الأنباء، فقد لا تكون ثمة أخبار جديدة...

بدأت الضربــات تسوطني، ورشفات الشــراب الحارة تفقد طعمها شيئًــا فشيئًــا، ثم تتحول إلــى مرارة تلــذع.. وخيوط الشمــس الجريئة البريئــة تتوغــل فــي، ثم تصطــدم بالجــدر الداكنة التــي تصدها عن القلب والروح.. تتزاحم الأحــداث في مخيلتي، تتعانق وتفترق، تتقارب وتتباعــد، وتتصاف وتتفاعل.. وترن عبارة زوجي في أذني: يعملون على بــث السم، وإحباط العزائم، وتكريس القهــر. وأتجاوز السم والإحباط والقهر.. أستند بقوة إلى ظهر الكرسي، وكفاي تحيطان بكوب الحليب.. يا لمرارة الجرعة! لقد تبنيت ذات زمان قول إيليا أبو ماضي:

قُلْتُ: ابتَسِمْ، لَمْ يقْصِدُوكَ بكَيدِهِمْ

لَــو لَــمْ تكُــنْ مِنهُــمْ أعَــزَّ وأَكرَمَا

لكنــه لم يعــد يعزينــي.. فالكيد يستفحــل، والجسد الأعــز الأكرم مزقتــه المؤامرات والأحقاد والقذائف.. وكمــا في كل يوم تترافق قهوة الصباح والقهر.. أشعر شعورًا خفيًّا أنه الانتقام.. الاستماتة في إخماد شعلــة شــاء الله أن تضيء الدنيــا، فيغرق الباطل والظلــم في الظلام. أسلحة الباطل كلها تستهدف حملة تلك الشعلة.. تستهدف كل من ينهض بقبس منها مهما ضؤل...

تراخت راحتاي عن الكوب الدافئ، وأغمضت عيني.. أيتها الشعلة، التــي لا يقضي علــى توهجك الزمان! ما الذي يحــول دون حملك بيدي هاتين؟! ماذا يمنعني من التسلح بشعاع منك؟!

المذيــع يتحدث عن أطنــان القنابل التي تحصــد الأرواح، وتسحق ولائد العقــول وروائع الإبداع، وجنى العرق المبــارك الثمين.. الموت.. هــل من الحكمــة أن نقــدم المزيد مــن الأرواح طُعمًا لنيــران الباطل، والمزيد من الشموع والشموس في معابد الظلام؟!

التحــرق إلــى وضــع الأمور فــي نُصُبهــا، الهيام الموجــع المضني بالانتصــار للحق، بالثورة حتى التفجر في سبيــل حمل شعلته المخوفة المهجورة.. كل ذلك يقوض جدران القلب، ويملأ ساحة الفكر والوجدان بهمٍّ كثيف وإحباط مقيت...

يــا شعلــة الحق، كيف أحملــك دون أن تعاجلني قذيفــة، فتسقطين من جديــد! وبين الآيتين اللتين تجســدان عذابي وحيرتي: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ و﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ كانــت سكينــة النفــس تمــوت وتحيــا عشــرات المرات فــي اليــوم.. بين ثقــل الأمانة

والتحرق المضني إلى امتلاك القدرة على الاضطلاع بها، وتوق النفس إلـى نعمـى السكينة والأمان في وعـد الخالق، أن لا خـوف على أوليائه ولا هم يحزنون.. بين هذي الشاطئين تضطرب بروحي وجسدي أمواج كالجبال، تجمع إلى الإحساس بالخطر الوعد بالأمن والأمان...

ليس مـن السهـل التوصل إلـى قـرار.. ليس مـن السهـل تطبيق الاستنتـاج العتيد: أي عمل أفضل من الاستسـلام إلى صراع العواطف والأفـكار.. أي عمل!! ويحضرني قول رسول الله ﷺ: «الشأن أعجل من ذلك» وأستنتج بيسر، والشأن الآن يقتضي العمل المجدي الفاعل، وبلا انتظار.. أفضل ما يسمح به ذلك الحال...

أفضل وأجدى!.. ما هو الأفضل والأجدى، وكل ما أؤمن به على شفا حفرة من الخطر، وربما الفناء؟.. ما هو الأفضل والأجدى، كيلا تضيع دقيقة من العمر تصلح لعمل ذي شأن؟

كل الأعمـال التـي يمكـن أن تجـدي سرابيـة، يلف الـدروب إليها الضباب.. كل صخرة أو جزيرة أو شاطئ، يلوح للعين، زلقًا لزجًا، ملآن بالحراب، مسـدودة إليه السبل، مغلقة دونه الأبواب. والصبر على لعق الجراح، وردم الحفر، ورتق الخروق إعدام بطيء، محسوم النتيجة.

الساعـة الملتصقـة بالجـدار تطـرف ببـلادة تحمل الحريـق إلى الأعصاب.. وأنا مقيدة اليدين والرجلين واللسان، طليقة الفكر والروح والرغبـات.. أتلهب وأترمد، ينضج جلدي، وأبدل جلدًا غيره.. ولا أفكر أبدًا في الالتحاق بركـب مدمني المورفين، الذي يتعاظم يومًا إثر يوم، حتـى غدا تيارًا في مثـل عرض المحيط، تقاومه القطـرات المتمردة،

متشبثـة بصخور الشطآن باستماتة، تـرى في كل لحظة الدماء النازفة مـن جراحها، وهـي تتخافق على سطـح العباب الهـادر، خيوطاً حمرًا ناصلة، سرعان ما تتشتت وتتلاشى، فلا يكاد يصدق أنها نزف القلوب، من لا تتاح له رؤية الأجساد التي تمجها بصبر واحتساب.

وأجـرع ما تبقى من شرابـي، وأسكت المذياع، وأغوص حتى الغرق في الصفحات، فتشرب احتراقي، كأنها لم تشرب منذ الأزل.



الحقيقة والكلمة

فرغت من الصلاة وقرآن الفجر مبكرة هذا الصباح، وكنت أغالب كآبـة شفيفة تدفعني إلى مـا يشبه الانكفاء على الـذات، وتجمع شتات كيانـي الدائم التبعثر هنا وهنـاك، فأتلذذ بدفء أشبه ما يكون بالألفة الداخلية أو بهجة اللقاء اللطيفة...

فتحـت النافذة علـى الفضاء الرمادي، الذي مـا زال يغتسل بمطر بليد منذ عصر أمس.. كان رأسي فارغًا، وهي حالة من العبث والتسيب لا أرتاح إليها.. ولم أجد الجاذب المعهود الذي يدفع بي إلى ركني الأثير في مطبخي، حيث اعتدت أن أخلو بأوراقي وكوب القهوة، فأمسك بروح يومي التي أحيا بها ما تبقى منه...

نظرت في ساعتي، واتجهت بلا حماسة إلى التلفاز.. تمام السابعة.. فلألتقـط نشرة أخبار من محطة مـا.. طفقت أستعرض محطات البث المتاحـة.. رسـوم متحركـة غريبـة الوجه واليـد واللسـان.. متظارف يستعرضـ أمام جمهور مسطح بطـر مشاهد يفترض أن تضحكنا، كما تضحكـه.. مغنٍّ منتفـخ يسوط الذوق، يعتصر حنجـرة مخنوقة تسوط الأذن...

أخيـرًا ها هو ذا مذيـع يقرأ نشرة أخبـار، متلجلجًا بأخطاء مثيرة مخجلة.. راح يرجمني، بلا رحمة ولا هوادة، بما يجري هنا وهناك من

أحـداث، وبما صرح به فـلان، ونفاه فلان.. واستسلمـت إلى الحجارة التـي اعتدتها، فلم أعد أرفع يدًا لدرئها عن مقاتلها مني.. كان ثمة كل شيء إلا الحقيقة، تلك الضالة التي لم يعد ينشدها إلا من رحم ربي.

وفـوق الحجر المعمد بكل دم ذكـي، رحت أحدق إلى جثتها.. كانت هامدة تمامًا، ومنتشرة تمامًا، وقد تبدت كل روعتها التي لم يعد يخشى أعداؤهـا تجليها، وكانـت الدماء لا تـزال تسحّ من جدائلهـا الباهرة، وترسـم خطوطاً تتلـوى وتتقاطع وتتعانق على سفـح الصخرة الصقيل اللمـاع.. وكان الجميـع يبكون، وهم يغمسـون أصابعهم فـي جُدَيّولات الدم، ويلعقونها بنذالة وجبن وقذارة وتشفٍّ...

أما أولئك الذين يحترقون أسفًا، فقد كانوا قلة، وكان دخان قلوبهم يتصاعـد إلى عنان السماء بصمت، ودون أن يـراه أحد.. لأن الحقيقة وحدها ترى مثل ذلك اللهب، وقد ماتت.

وفـي هجمة يائسـة مفاجئة، تشبه مـا يتخلل النزع مـن صحوات، انتفض الوجدان متمردًا: ما الذي يحبس لساني؟! ما الذي يكبل يديّ؟! أي ثمن، يمكن أن أدفع للكلام، أكبر من ذلك الذي أدفعه للصمت!!

وتفجـرت في فوديّ نار حقيقية، وهممت أن أفتح النافذة وأصرخ.. ثبطني أنني لا أملك حنجرة قادرة، وأن صوتي يحشرج في حلقي، كلما حاولت رفعه.. وأن نتيجة عملي هذا معروفة سلفًا.

قمعـت انتفاضة الوجدان، واستنجدت بكل ما أعرف في نفسي من تصميـم وعناد حيـال ما أؤمن به، فقد أخضعتنـي ضرورة اتخاذ قرار ممكـن التنفيـذ إلى زجر أحاسيسـي، بل التنكر لها، جاحـدة أفضالها

علـى اليـد والقلم.. علي أن أفرغ لخطة عمليـة، تضع حدًّا لهذا العذاب اليومـي.. لن تنتهي جلستـي هذه كما انتهت غيرها.. لا بد من الاهتداء إلـى ممر سالـك.. لا بد من الانتصـار للحقيقة.. حبيبتـي الصريعة.. كان يمكن أن تنقذها الكلمـة التي أكتم، وستنقذها، فهي إحدى أنثيين يمكـن إحياء مواتهما.. الحقيقة والأرض.. مـا أكبر الشبه! وما أصعب اكتشافه!

انتابنـي شعور كذلك الذي ينتاب من يتعرضـ إلى كابوس.. نضال مستميـت عبثي ضد أخطار غير محددة المعالم.. مغالبة غير مجدية، ولكـن لا بد منهـا، لعباب غامض وطـامٍ، يمتد وينجزر فـي كل ثانية.. وكمـا في الكابوس لم يكن من الصراخ بدّ، وكان الصوت بركانًا يزلزل الأعماق، لكنه ما إن يصل إلى الشفتين حتى يخمد ويغدو عاجزًا أشلّ، ثـم يرتمي بـلا حراك، فوق رمـاد القلب المتفطر خيبـة وإحباطا.. إن لـم ينطلق ذلك البـركان، إن لم يقذف بحممه ورمـاده، فسيدمرني لا محالة.

كلمة الحق، لا أملك سواها.. أفضل الجهاد.. فلأحاول بشكل مجدٍّ أن أجد لها طريقًا إلى النور.. لأحاول للمرة المئة أن أنطلق بتلك الشلاء العاجزة، رهينة المحبسين الصدر والورق، المخلفة التي تفيض عينها مـن الدمـع إن لم أجـد ما أحملها عليـه.. وأستعيد فـي محاولة عنيدة متأنيـة مغامـرات كلمتي تلك في سبيل رؤية النـور، علني أكتشف سبب إخفاقاتهـا، فأعالجهـا أو أتجنبها.. كانت تسافر فـي صناديق البريد، إلى هنا وهناك، ثـم تختفي إلى الأبد.. أنفق الجهد والمال في ترقبها، ولا تطل برأسها قط..

كـدت أشك في قدرتها، وأفقد ثقتي فـي حكمي عليها، كدت أخجل من تطاولـي واغتراري بها، وألومها على تجملهـا الذي ضللني، لولا أن هـذا التصنيف المفضوح الذي تمنح بموجبـه الكلمات جوازات السفر قـد عرّى الحقيقـة أمامي.. فكل ما كتبته، وإلـى أي اتجاه أرسلته، رأى النـور عاجـلاً أو آجلاً.. إلا هي، الكلمة التي أتحـرق إلى قولها، أبتّ إلا أن تظـل حبيسة بيـن روحي والورق. فإذا ما سافرت يومًا، فإلى حيث لا يبقى منها إلا الانتظار.. فالذكرى.. فالنسيان.

أشتهـي أن أقول: مـا أغبى الذين يحاصرون الكلمـة! كيف السبيل إلـى إفهامهم أن كل أنواع الزنزانات والقضبان والقيود، التي ابتكروها عبر تاريخهم الطويل المخزي، لا تملك أن تحيط بها، أو تكبلها.. وعلى الرغـم من إيماني بصواب هذا الكلام، لا أجـرؤ على إطلاقه، إلا على أنـه أمنية شديـدة الإلحاح، لو كان لي عليها سلطـان لحبستها؛ حفاظاً على ماء الوجه.

لمـاذا يكون لأعـداء الحق جند يتربصون بكلمتـه، ولا أرى لأنصار الحـق جنـدًا ينصرونـه؟! أين هم؟! أيـن كلمتهم، وقـد استبد الباطل بالعالـم أو كاد؟! مادمت أعشق تلك الكلمـة، ويدمر نزوُها في سلاسل الشفـاه سكينتي، ويؤرق تمردهـا خلف أسوار الصدر رقادي، فلا بد أن ثمـة الكثير ممن يشاركونني ذلك العشـق، وذلك الغليان، وذلك الأرق، فأين هم؟ أين يختفون؟ كيف السبيل إليهم، وكل هذه الحواجز والعقبات والأشواك تعترض الطريق؟!

مـا كُنْهُ تلـك اليد السـوداء الحديدية، ذات الأصابـع الأخطبوطية الخفية التي تمتد في كل اتجاه، وتتسلل إلى كل زاوية، تسعى إلى إطفاء

الحقيقة فـي صدر الكلمة، فتتحـرى باستماتة كل شعـاع منها، وتطبق علـى عنقه، فيتحجر اللهـب، وتتجمد الحياة!! مـن صاحب تلك اليد؟! وإلى كم من الزمن والجهد والمثابرة والتصميم احتاج، حتى وصل إلى هذا الذي وصل إليه؟!

مـن هذا الذي يقف وراء الباطل بذلـك الحرص، وذلك التكالب .. ويتخذ له ذلك الجيش الذي يغطي عين الشمس من الخدم المسخري الأيـدي والأعين والألسـن، الممسوخي الذوات، الراسفيـن في أصفاد العبوديـة، كل حسب وجهـه ولونه وهويته، دون أن يكـون لهم من الأمر شيء، ومن الأجر إلا الخسران المبين؟!

كيف السبيل إلى أن يتمرد هؤلاء؟ كيف السبيل إلى أن يعلموا الغيب فـلا يلبثوا في العذاب المهين؟ كيف السبيل إلـى تحرير أيديهم، ونزع غطاء أعينهم، وحلّ وثاق ألسنتهم؟

الشـأن أعجل من ذلك، فإلى متى، وقد بدأت العيون تزيغ، والقلوب تبلغ الحناجر ونظن بـالله الظنون؟ إلى متى، وقد ضاقت علينا الأرض بمـا رحبت، وضاقـت علينا أنفسنا، وأيقنا أن لا ملجـأ من الله إلا إليه! إلى متى، والدم والعرق، ولآلئ الإبداع، وثمار العلم، تحرق كل يوم، على مرأى ومسمع من الدنيا، ومن المنطق، ومن الحق، ومن نواميس الكون المدوسـة المهانة؟! والكلمة في صدري قنبلة موقوتة، توشك أن تقوض أركانه وتمزقه؟!

يـا أيها الذين أحبهم، يا أيها الحقيقيـون، يا ساكني الكلمة التي لا يسمعهـا ولا يقرؤها أحد، يـا أيها الذين تصنعون الحيـاة، كما أرادها

بارئها، جميلة نقية خيرة.. يا أيها المكنونون، كاللآلئ في ظلمات الزيف والباطل والكذب والعبث والتسيب والضلال.. منية الروح ولبانة النفس أن أكون معكم، أن أكون مثلكم، أن أكون منكم.. لكنني لا أستطيع أن أمدّ جدائلي إليكم، ولا أعرف، ولا أقوى على الوصول إلى عوالمكم النبيلة القاسية، التي حبستم فيها أنفسكم لجهاد الضلال والزيف.

لكنني أستطيع أن أفعل شيئًا.. شيئًا صغيرًا يشبه ما تصنعون.. شيئًا فيه نفحة من إبداعاتكم، وبعض من نكهة ثماركم، فيه شعاع أعِدُكم أن أجاهد ليصير شمسًا.. سأتحرى ما غفلت عنه العيون الخبيثة، لأجمله وأجوده، سأبحث عن كل مجيد لأربت كتفه، وسأسعى إلى كل جميل، آخذ بيده في دروب الكمال، وسأمضي إلى كل حقيقي؛ لأكون في صفه ضد الزيف والضحالة. سأسخر كلمتي لمن يعرقون ويسهرون ويعملون، لمن يحبون الخير والحق، ويحملون كلمة الله على بصيرة وهدى، ويكرسون وجودها في الأرض حقًّا وعدلاً ونورًا.



المـــوؤودة

الدمـع الصلب الحــارق المتجمع خلف أسوار العينيــن، وفي أغوار الصدغيــن، يحجبني عــن العالم، يســد الطرقات علــى الأصوات إلى أذنــي، ويزحم أقطــار رأسي، ويسوط فــوديّ.. أزدرد حجــارة اللعاب، فأحسهــا ترجــم القلــب والأعصــاب، وتسدد لكمــة عنيفة إلــى رأسي فأترنح، وأتهــاوى على أقرب المقاعد.. أحدق فــي السرير، حيث كنت قبــل قليل.. أراها هناك مسجاة بلا حــراك.. كل ما فيها فاتن، يسحر القلب. لكنها جثة هامدة...

شلنــي رعب ليس غريبًا عني، فهو يعتادني فــي مثل هذا الموقف.. كم مرة تستطيع امرأة أن تنتزع أنضر وأحب جزء من كيانها، وتهصره بمثــل تلك الوحشية حتى الموت، ثم تحفر له حفرة في الرمال، وتهيلها عليه، وتنهض بما تبقــى من كيانها، كشبح يغادر قلعة غامضة مهجورة فــي الســراب، متجهًا إلى حيث لا بد أن يكون كيانًــا حقيقيًّا، يعيش بين النــاس كمــا يعيشون! لقد جرب مــرات عديدة أن يصــرخ فيهم: لست ســوى شبــح.. لست سوى كيــان وهمي، فــارغ إلا من الهــواء.. ليس لي ملامحكــم، ولا قلوبكــم، فكيف يفرض علي العيش بينكــم؟ سيخافني أطفالكــم، على الرغم مــن أنني لا أملك قلبًا شريــرًا، ولا نيات خبيثة، ولا مطالــب لي سوى أن تدعونــي وشأني، سيخافونني؛ لأنهم لا يرونني؛ لأنكم علمتموهم الخوف مما وراء أسوار المجهول.

أحس، حقا، أنني شبح فارغ اللب.. كل ما كان في داخلي وأدته مرة إثر مرة، وكان لا بد أن أفعل؛ لأنني لا أستطيع أن أؤمن له أسباب الحياة.. ومع ذلك، فأنتم لا تدّعونني قاتلة، وقد يدعوني بعضكم قديسة! فالقديسة، في عرفكم، مقطوعة الصلة بالحياة، فارغة القلب، شبح أسطوري لا جسد في ثيابه الفضفاضة الغريبة.

الجسد الذي انتزعته قبل أوانه من أعمق نقطة في كياني يشفّ شيئًا فشيئًا، وهو ما يزال مسجى على وسادتي.. أرعبني مرآه يتحول إلى ما يشبه البلور أو الفقاعة، ويتصاعد إلى الأعلى متساميًا مع الهواء، منسابًا من النافذة المشرعة.. أرعبني أن يُرى خارجًا من نافذتي هذا الكيان الغريب المريب، الذي لن يتعرفه أحد، ماذا سيقول من يراه؟ إنه لا يشبه أي شيء يعرفونه.. قد يتهمونني بالسحر.. ولم لا؟! ألست شبحًا؟! قد يكونون محقين.. هل هم محقون؟!

التشاغل بالسؤال الذي لا جواب له لم يدم طويلاً. الألم هو الذي يدوم، والألم عذاب ملتهب، لا يفلح معه التشاغل...

ارتعش كياني كله.. أحسست أنني قد أعجز هذه المرة عن حمل جثة وليدتي الخديجة إلى أحضان الرمال.. كنت، كلما وقفت هذا الموقف، أشعر بمثل هذا العجز، لكنه الآن أكثر طغيانًا، وأنا أمامه أكثر ضعفًا... لم أجرؤ بعد على اتخاذ القرار، لكنني الآن واثقة من قرب اتخاذه. فهل أتحمل تجربة جديدة؟

انتابني الرعب من نفسي، وتملكني الاشمئزاز.. هذه البضعة الرائعة، التي نمت في داخلي، وشاركتني الأنفاس والدم والأحلام،

ترقـد مطفأة، تنتظر أن أحملها إلى مثواها في العدم. وربما كنت أفكر في أخرى متجاهلـة أنها، في الأغلب، تلقى المصير نفسه... لا بد الآن أن أتخذ القرار.

اقتربـت من فلذتـي، مددت إليهـا ذراعي، حملتهـا، حملت عذاب وإحباط البشرية كلها.. كانت باردة.. هوائية.. لا جرم لها ولا وزن، كانت شيئًا لا يسمى.. كانت حزني وفجيعتي وألمي الذي بات لا يحتمل.

أردت أن أضمهـا إلـى صـدري، أعيدها إلى حيـث كانت قبل قليل، لكنني لم أفعل.. لا يمكن أن أفعل.. لم أعد الرحم الصالحة لاحتوائها، فأنا لا أملك لها أسباب النمو، لتولد وترى الحياة.

تلفتـت، وتسربـت مـن بين ذراعـي، وتهـادت متموجة فـي فضاء الغرفـة.. انصفقت ذراعاي على أضلعـي كالعصي، واندفعت مستميتة أستعيدها من الفـراغ، حيث تسبح.. لم أقوَ على التسليم بأنها ماضية، وبأنهـا انتهـت، وإن كنت مـا أزال أراها، وربما ألمسهـا.. مضت قبلها فلـذات، شيعتها، كما أفعـل الآن، لكن الألم الآن أكبـر.. لقد قررت أن تكون آخر مآسيّ في هذه الحياة...

حتى العذاب الذي يرافقنا طويلاً، نشعر بشيء من الوحشة، عندما نودعه آخر مـرة؛ لأن جانبًا من حياتنا وكياننا يتوارى إلى الأبد، سابقًا ما تبقى منهما إلى الحتم الآتي لا محالة.

جفـت الدمـوع.. لم تعد تتفجـر لامبالية بي.. ربمـا لأن الأشباح لا تبكي.. أجل ينبغي ألا أبكي.. فلا يمكن أن يبكي شبح؛ لأن الدمع دخان يطلقه حريق، وما في أعماق الشبح ما يحترق...

تطاولت باسطة ذراعي، وجعلت أدور حول نفسي مضطربة، في أرض الغرفـة، أحـاول الإمساك بها. ظلـت تهوم فوق رأسـي، وفوق متناولي، وهـي تبتسم لـي ببراءة موجعة.. بـدت كأنها تلهو، لم تكـن تتألم، فما كنت بالأم التي يؤسف لفراقها.

قـد تكون رقـت لتوسـلات عيني، وقد تكـون تعبـت، فأمكنتني من نفسهـا.. ارتمت بيـن ذراعي وصـدري، كخنجر مفلول، فـي كف قاتل متشـفٍّ لئيم، فحملتهـا بعيدًا عن صدري، حملـت أجمل ما في حياتي، كما يحمل المرء كتلة من شوك يتحاشى أن تمس جسده...

لا معنـى للبكاء.. لا بد من إنجاز العمـل.. لم يعد يعذبني ويمضني أننـي ماضية إلى دفن أجمل مـا في حياتي.. هل من الضروري أن يملأ الحياة شيء جميل؟! لن يكون ذلك ضروريًّا بعد الآن.

أخيـرًا ولد العذاب القرار الذي خلتـه أقسى ما في الوجود.. ما هو أقسى منه سهل ولادته.. ثم إن الأشباح لا تحتاج إلى ما يملؤها، جميلاً كان أو قبيحًا. وهذه ميزتها الكبرى.

الرمـل الأصفر الحار، كمجروشـ الزجاج، أسـال الدماء من بين يدي.. تشققت أصابعي، والحفرة ما تزال قليلة العمق، والجسد الأثيري يتضـوع من حولـي، فيصيبني الذعر من تلاشيه فـي الهواء قبل إنجاز الحفـرة، وكان ذعـرًا مزدوجـًا، الذعر ممـا أقوم بـه، والذعر مما قد يحدث.

لم يكن من حسم الموقف بدّ. حتى لو أن الحفرة غير كافية فلا بد مـن إنجاز العمـل، فأنا أفرق من عودة الألـم المثبط المقعد.. وقراري الوليد مازال ضعيفًا، أخشى ألا يحتمل وطأة الموقف.

انصـاع الجسد الأثيري الرائـع إلى يدي المجرمتيـن غير مبالٍ.. فوضعتـه فـي الحفرة، ورحـت أهيل الرمـل فوقه مهتاجـة، ممعنةً في الضغـط براحتي وبأصابعي، كأنني أتشفى في منظر الجراح وطعمها.. كانت روعتـه تتسرب من بين حبات الرمل، فأهـرع إلى دفنها بوحشية وهلـع.. ورحت أطلق صراخًا عشوائيًا بكل ما في كياني من تباريح الألم الدفين.

الأشبـاح تصـرخ.. لعل الصراخ هـو كل ما تفعله.. مـزق الصراخ حنجرتـي.. مزق قلبي.. أنفاسي تشظت كجذل شديد الجفاف يحترق. ومـع آخر شعـاع من الجمال الذي دفنت اختفى صوتـي تمامًا، دفن هو الآخر..

كانـت رهبـة وحشيـة تتربص بي، فـي الأفـق، وفي الأرض، وفي السماء، وفي داخلي الخاوي كوادٍ مخوف سحيق، وكان عالم لا حدود له من العبث وعدم الجدوى يفتح لي أبوابه على مصاريعها...

هل يصلح هذا العالم للحياة إذا ما دفنا آخر أشواقنا؟!

وقـت طويل مضـى، وأنا جاثمـة أمام الجـدث الصغيـر.. أعماقه القصيـة فـي مثـل سعـة الخيال والتصـور، لكـن جدرانه تميـل بشدة متقاربـة، حتى تتجـاوز حافته، وتلتقي في نقطة واحـدة.. في الصميم من الروح...

الحـدود القصـوى والقصية للألـم والعجز، كان لا بـد من أن ترد دخـان احتراقي إلـي.. أحسسـت بالدمـوع تقطر على نحـري وركبتي المدماة، وتسيـل ممتزجة بالسائل الوردي النـازف.. ملح الدمع ألهب

الجـراح.. كـم مـن الدمع يجـب أن أذرف لتلتهـب الجـراح إلى درجة النسيان؟.. لتجرف كل ذلك الألم!

تلفت.. كان كل ما في وما حولي صحراء...

هنا كانت تبدأ نقطة الرجوع في كل مرة.. وهومت في الأفق البعيد ذكريات مبهمة.. ذكريات! كيف؟ وقد كانت ذات يوم العمر كله!!

وكمـا فـي كل مـرة، وكأن الأمـر لا يختلـف وسابقيـه، بـرزت من أقصـى نقطة في الأفق. وانداحت كعادتها تمامًا، فغمرت الرمال كلها، وأغرقـت الجدث الصغير، وطمت حتى غمـرت ركبتي.. أحسست أنني أفقـد توازني ووزني، وأنا محمولة على صفحـة شفافة رقراقة، معجزة بنعومتها وقوتها وطغيانها.. مـال جسدي المتهالك الظامئ إلى القرار مستسلمًـا، وصمت كل شيء.. الجراح والدموع والألم.. صمت كل شيء مستسلمًا مثلي.. إلا همسها الدافئ الرحيم.

وتلفـت مـن أقصى اليسـار إلى أقصـى اليمين، فلـم أرَ غيرها إلا السماء.. غمرتنـي بجراحي ودموعي، تخللتني إلـى أعماق ترزح تحت أطبـاق متصلة من الألـم والدمع والفجيعة.. أرغـم سلطانها المهيمن الرؤوف كل شيء، وخلا بالروح خالصة نقية، كما أبدعها خالقها.

كنـت فـي حاجـة إلى الأمـان والـدفء، إلى مـا هو فـوق الأشواق والأمانـي، إلـى ما هو فـوق الرغبـات والحاجات، إلى رحمـة ربي التي تداركتني عندما أقفرت دنياي إلا من الفجيعة والعذاب...

المفسدون في الأرض

قبـل أن يصبح العالم كما نعرفه، وفي منتصف ذات ليلة، حيث كل شـيء صامت ونائـم، ومن أعالي المرتفعـات المشرفة على الصحارى المقفـرة، كان باستطاعته أن يميز بقعة أكثـر سوادًا، تضطرب زاحفة إلى الشمال الجغرافي، بقعة صامتة تتقدم بدأب يلفت الانتباه. حتى إذا مـا بدأت الشمس تتطاول من خلـف قوس الأفق، لتكشف تلك الأصقاع، التصقـت بالأرض، وتململت فـكادت تغمرهـا الرمـال، وتموّتت حتى سوّيت بالصّفرة الطاغيـة، ولم تعد عينه تستطيع التقاطها، فانصرف إلى الاستمتـاع ببهاء الشمس يغمر الدنيا، طاردًا صورتها من الذاكرة؛ كيلا يفسد متعته بذلك الجمال البهي.

فـإذا انسحبت الشمـس وغابت، حتى عـاد السواد يمـلأ الأنحاء، بعثت تلك الحشرة اللزجة، كما دعاها، واستأنفت بإصرار مثير الزحف الصامت الدؤوب.

كان طبيعيـًّا ألا يمضي ليلـه كله في مراقبة حشرة، فقـد كان يأسره جمـال القمر، وسحر النجوم، وكان يجد لذة كبيرة في إحصائها، وتخيل مشاهـدة ممتعة من تشكيلاتهـا، وابتداع أشكال أكثـر إمتاعًا... وكان له الحق في ذلك، فقد كانت النجوم آنذاك أجمل منها اليوم، كما كانت الأرض فـي حالة أفضل، إذ كان في مكنة الطموحيـن أن يفكروا في مشروعاتهم الخاصة، دون أن يحسبوا حسابًا لموضعها من النظام العالمي...

أكثر من مرة قرر أن ينزل من معتصمه؛ ليحدد موضع تلك الحشرة المريبـة، ويكشف حقيقتها، لكـن أمورًا أخرى كانـت تحول دون ذلك. والحـق أن أكبر تلك الأمور وأصعبهـا كان القدرة الهائلة لتلك الحشرة علـى التخفي والتستر، وإصرارها على التماوت، مادام شيء من خيوط الشمس، مهما ضؤل، مسلطاً على مكانها.

أثارت الحشرة فضوله، ثم غضبه، فهو بين الحين والآخر كان يعيد حسـاب المسافة بين النقطة التي رآها فيها أول مرة، وموقعها الحالي، فيـرى أنها قد تقدمـت بشكل ملحوظ، كأنها تسيـر إلى غاية محددة.. وكان يحدث نفسه: لن تستمر في التقدم حتى تسقط في الفراغ المخوف المجهول، فهي لا تبدو بلهاء بهذا القدر...

كان فـي وسعـه أن ينـزل مـن مرقبه فـي النهار، ليقـف في نقطة محـددة، حتى إذا مـا حلّ الظلام، وبـرزت الحشرة المثيـرة، وراحت تتقـدم، اصطدمـت به، فاستطـاع اكتشـاف ماهيتها، لكنـه كان يقول لنفسـه: ولمَ أفعـل؟ لمَ أكلف نفسي هـذا العناء الذي قـد ينطوي على خطـر؟ إنها تتقدم فقـط.. وماذا في ذلك؟! حتى لـو كان هذا الأمر لا يروقنـي، فإنه لم يثبت لي يقينًا، أنه ينطوي على شيء من الخطر. ولمَ التفكيـر في الأمر، وليس في وسع تلك الحشرة الصغيرة أن تفعل شيئًا يذكر؟! فلتتحرك كما تشاء. فليست أكثر من حشرة ليلية بشعة تزحف، وليس علي إلا أن أطأها بقدمي.. متى رأيتها في طريقي.

والحـق يقال، فقد شغل صاحبنا بأمور جسـام أخرى، غير مراقبة النجوم، والتغزل بحوريات البحار والغابات، فكان طبيعيًّا ألا يهمه كثيرًا،

مــع أنه قد لفت نظره فــي حينه أن الحشرة قد توقفت في نقطة الوسط من أراضيه، وإن كانت لا تزال تختفي بطريقة لم يستطع إدراكها، كلما أشرقت الشمس.. ولعلها أراحته بذلك من القلق بشأن وجهتها.

شيئًا فشيئًا صار يلاحظ أنه قد صار لتلك الحشرة موضع ثابت في ذاكرتــه، وإن كانت في الذيل من قائمــة الاهتمامات، التي غدت تشمل القتال والشعر وملذات أخرى، فما مدّ عينيه في ليلة أنس أو وحشة، إلى ذلك المكان إلا اصطدمتا بها.

زمــان طويــل مضى، والحشرة، كمــا اعتاد أن يدعوهــا، تهرب من ضــوء النهار إلى حيث لا يــدري، فإذا جنّ الليل راحــت معالمها تتضح شيئًا فشيئًا، كأنما يلدها الظلام..!

ولا يعــرف متى غيرت عادتها تلك، فهو لا يتذكر آخر مرة طلع فيها النهــار على مكانهــا دون أن تظهر.. إنها الآن موجــودة، والشمس تملأ الأرضــ كلها، وأمس كانــت كذلك.. وتساءل: منذ متــى وهي تظهر في وضــح النهــار؟!! ولم يهتــم كثيرًا؛ لأنه لــم يجد للجــواب أهمية.. فهي ليست أكثر من حشرة كريهة في أسوأ الأحوال!

وذات يــوم فطن إلــى تطور جديد في حجمها، لقــد غدت أكبر! مع ذلك لم تزل غير ذات بال.. حتى لو أنها غدت.. وحشًا.. فالأرض ملأى بالوحوشــ.. حقًّا إنه لم يرَ قــط وحشًا بمثل ذلك السواد المنفر، ولكن هــذا لــم يخفــه، فهــو أشجع من أن يخاف وحشًــا جاثمًا دون حراك، ولا سيمــا أنــه مازال يعتقد أن في وسعه التخلص منه متى أراد.. بل إنه سيفعل حتمًا.. متى اقتضى الشأن ذهابه إلى هناك.

ما أسرع ما تضاعف حجم الحشرة! حتى غدت وحشًا حقيقيًا، وإذ ذاك كان لا بـد مـن التفكير في السبـب، فالوحوش لا تصـل عادة إلى مثـل ذلك الحجم.. لا بد أنه وحش لا يعرفه، أو أنه لم يرَ مثله من قبل، وحشـ ينمو بشكل غير مألـوف. ولم يخطر ببالـه أن يتضخم أكثر من ذلـك، فضلاً عن أن يخطر ببالـه أنه قد يتضاعف عشـرات، بل مئات الأضعاف، وإلا كان أحسّ بالقلق.

بعد مراقبة فضولية طويلة مشوبة بالدهشة، اهتدى إلى سرّ ازدياد حجم الوحش الرابض، إنها هيولات سود، تتجمع من هنا ومن هناك.. وحـدق باهتمام، بـذل أول مرة جهدًا في اكتشـاف ما يجري. كان، من قبـل، إذا لـم يحدق اختفى المشهد، قبل أن تلتقـط عيناه تلك الدقائق السـود الكريهة، تتقاطر إليه بكثافة.. كانت تبـدو له من مرقبه العالي كأفـواج الذباب، لكنها لم تكن تتشتت قط، بـل تتقارب وتتقارب، حتى تصل إلى حيث الوحش، فتلتصق به، وتهدأ حركتها إلى أن تتلاشى.

مـع ذلك لـم يبلغ به القلـق حدًّا يدفعه إلـى دوام المراقبـة، كان قلقًا فحسـب، فهنـاك شعور راسخ، لم تخطـر بباله مراجعتـه.. ليس في الأمر خطـر، وحتى لو كان ثمة خطر، فتجـاوزه لا يحتاج إلى استعداد، ولن يكلف أكثر من أن تقتضيه الحاجة.. وحتى لو أن هذا الوحش قد بقي هنا، حتى لو أنه ظل يتضخم إلى ما لا نهاية، فهو لا يعدو كونه وحشًا جاثمًا بلا حراك.

كانـت أوقات سعيدة وجميلة كثيرة قد مرت به، لم تنغصها مراقبة الوحشـ الملتصـق بالأرض، حتى غلب على ظنه أنـه لا يتحرك، أو أنه دائـم النوم، بل ربما كان ميتًا. ومن يدري؟ فقد يكون مخلوقًا كالنبات،

ينمو، ولا يتحرك. وأسعده أنه لم يعكر صفو أوقاته بالنزول من معتصمه، ومحاولـة اكتشاف كنـه ذلك الكيان الأسود البشـع، فضلاً عن محاولة طرده أو محاربته. فها هو ذا وكأنه ليس موجودًا، يربض بصمت، كأحد الجبال، على شاطئ البحر. حقًّا إن مظهره يمحو الكثير من جمال ذلك الشاطـئ اللازوردي المضيء، ورواء ونضـرة تلك المرتفعات الخضر، التـي يختلـط بريقهـا ببريق الميـاه، لكن ذلـك لا يستحق بـذل عناء، فالجمال ما زال الغالب والمسيطر.

وشيئـا فشيئا، بـات يلاحظ، في متاهات وسنـه، أن تلك البقاع قد بـدأت تستحـم بنور بهي، مـن نوع مختلف عـن نور الشمـس أو القمر، ينبعـث من حيث لا يرى أو يعرف، ثـم ينتثر على الأرض هناك، ويندلح كميـاه البحر البيضـاء المضيئة، فيغمر كل ما حولـه. وعلى هدى ذلك النـور اكتشف بلامبالاة عجيبـة، أن للوحش جرمًا أكبـر مما تسمح به الرؤية من بعيد، فها هي ذي خيوط النور الوهاج تمتد في كل اتجاه إلى مسافات بعيدة، أما باتجاه الوحش، فهي تنكسر، وتنعكس شبه عمودية، مشكلـة جدارًا عاليًا، يسمح ضباب البحـر بتمييزه، وهو يكاد يتلاشى، قبل أن يبلغ أعلى ظهر الوحش الهائل.

حمل ذلـك شيئًا من الرهبة والهم إلى قلبه، وأحس على نحو مبهم أن هـذا قد يستمر، قد يتحول ذلك الكيان الكريه إلى شيء ثابت.. إلى جبل..! خفف ذلك التصور من حدة توتره، فإن جبلاً يضاف إلى جبال المنطقـة لن يكـون سيئًا إلى هـذه الدرجة، ولا سيما عندمـا لا تكسوه الخضرة، ويلفّ قمته الضباب.. لا بد أنه سيتحول إلى جبل، فلا يتكسر النور هكذا إلا على الصخور.

قبـل أن يستطيع إقنــاع نفسه بتفسيره لانكســار النور على خاصرة الوحش، بدأ أمر مسلٍّ يفرض نفسه، كان مسليًا ومريحًا.. فقد بدا النور كأنه يتصدى للوحش.. لقد كان مصيبًا في عدم تنغيص متعته بالنزول إلى هناك، فها هو ذلك النور الذي لا يعرف كنهه يتصدى له..

«يتصــدى»! ليســت الكلمة الصحيحة، فالوحش هــو من يتصدى.. علــى كل حــال.. النور يبدو قويًّــا ووهاجًا، ومنبعــه يتسع شيئًــا فشيئًا، وأشعته تصل إلى المزيد والمزيد من بقاع الأرض، حتى إن بعضًا منها قد وصل إليه، وإن هو لم يتجاوز ذيول المرتفع الذي يعتصم به.

هــذه القياسات والمراجعات شغلته عما جرى، وفي لحظة خاطفة، هنــاك.. وعندما عــاد ينظر، كان الوحش يجثم فوق بــؤرة النور..! لقد فاتته اللحظة الأكثر أهمية: هل صعد الوحش فوق النور، أم تغلغل النور تحته؟!!

أحســ بقشعريرة ورهبــة، وانمحت تمامًــا كل تصوراتــه السابقة، واستسلــم إلــى الواقع المذهل.. أي كيان بغيضــ هائل الذي يراه؟! عن ماذا سيسفر هذا الواقع الجديد؟!

تســاؤلات دغدغت عقلــه، خرشت صفحة بحيــرة تفكيره الصقيلة الساكنــة، لكن دفــء الشمس في الاعتدال حمل إلى جفنيه نعاسًا، وجد فيه ملجأ من حالة غير مريحة.. فتمطى واستسلم إلى النوم!

لم يكــن نومه مريحًا، فقــد راحت أحلام غير جميلــة تنغص عليه صفو رقاده.. حلم بالوحش الذي لم يبقَ وحشًا.. بالنور الذي أحس فجأة بالقلــق عليه.. بأولئك الذين يقتتلــون في الفلوات المضيئة البهية، عند

أقدام مرتفعة.. حقًّا إنهـا اشتباكات صغيرة متفرقة،لا تستحق الذكر، لكنها تحمل إليه الامتعاض نفسه الذي سببه تداخل ذلك الوحش البشع بالنور هناك.. لماذا تحدث كل هذه المنغصات المملة هنا؟!

عندمـا فتـح عينيـه بعد نوم طويـل، حولهمـا، كما اعتـاد أن يفعل منـذ زمن بعيد، إلى حيـث الوحش والنور، واتسعا شيئًـا فشيئًا لتطردا آثار الوسن المرهـق الذي يشمله.. وفاجأه ما رأى.. كان سطح الوحش الداكن يتشقق وتبرز منه حزم النور .. يتشقق أكثر فأكثر.. وحزم النور تبرز أكثر فأكثر فأكثر..

زفر بارتياح، وهز رأسه بثقة.. مرة أخرى يكتشف أنه على حق؛ لأنه لـم يدع ذلك الوحش «التافه» يقض مضجعـه، لقد كان يعلم.. «يعلم»!! ليسـ تمامًا.. «يحس».. أيضًا ليسـ تمامًا.. لعل الفكرة قد ولدت الآن.. لا بأسـ، فهاهـو ذا من يتولـى القضاء على الوحش، قـام عنه بالمهمة محاربون أشداء، مازالوا يمزقون ظهره بدأب؛ لفتح المزيد من الشقوق التي يتسرب منها النور.. هل يمكنهم القضاء عليه؟ هل يذيبه النور؟

لبث طويـلاً يراقب بفضول: الأمور تحلّ من تلقاء نفسها.. أو هكذا تظهرهـا المسافـة الشاسعة.. أمر كان لا بـد أن يحدث بشكل ما.. عن ماذا ستنجلي تلك المعركة؟!

لقد انجلت.. من تلقاء نفسها، وهو ما توقعه تمامًا، الوحش تفجر.. تبـددت شظايـاه السـود، حتى تلك التي لـم تنصهر، وتغلـل في شقوق الأرض، نبذت في كل اتجاه، وسقطت في رمال الصحارى، وعلى سفوح الجبال، وفي مياه الأنهار والبحار، وتقاذفتها الرياح في كل اتجاه..

الآن عـاد إلى ذلك المـكان رواؤه، والنور البهـي أطلقه المحاربون من جديد في كل اتجاه، أطلقوه خيوطاً مديدة وجميلة، تشف عن صفاء البحـر وفضته إلى الغرب، وذهب الرمـال إلى الجنوب والشرق، وبريق ثلوج القمم في الشمال.

جمال الأرض، وبهاء النـور المقدس، والأنفاسـ الطويلة العميقة الشافيـة، كل ذلك انعكس على أحلامـه الواسعة راحة وسلامًا، فتحول بعينيـه عن تلك البقـاع بعد زمان طويل، وراح ينشـد الجمال في مكان آخـر.. كل شـيء عـاد جميـلاً، بل أجمـل ممـا كان. واطمـأن قلبه في مضجعه: لن يصيب تلك الأرض سوء.. إنها قلب الأرضين وأجملها.

وعاد يدمـن التأمل.. الرمال الذهبية المصقولة، ذات بريق ذهبي يخطـف الأبصـار.. كشمسـ الغـروب.. كالسائل العسلـي الذي يقطر مضيئًا صافيًا من قفز تلك الحشرات الطنانة عاشقة الأزهار.. حقًّا إن أولئـك يقتتلون دائمًا، هنا وهناك، ينغصون عليه متعته بذلك الجمال، لكن الرمال سرعان ما تبتلع جثثهم المتفسخة. ثم يولد آخرون غيرهم، يكونـون غاية في الجمال، قبل أن يعرفوا كيف يقتتلون.. يقولون: إنه لا بد من ذلك.. لا بد؟!.. هم أدرى بشؤونهم، ثم إن ذلك يجب ألا يخدش تلك الصفحة الذهبية الصقيلة الرائعة..

والآن، وقـد طال به الزمن، واعتاد مـا يراه ويسمعه، نسي تمامًا ما كان ومـا حدث. وكما لم يستطع قديمًا اكتشاف أول مرة رأى فيها شبح البقعة السوداء، التي قدمت إلى القلب من أرضه، ثم تحولت إلى وحش بغيض، حاربـه النور وفجَّره، ونثر أشـلاءه، فابتلعتها رمال الصحراء،

كذلـك لـم يتبين متى بـدأت تلك الشظايـا السود الدقيقـة تنبعث من الرمـال، وتتقولب وتتشـكل وتتراص، وتعود حشرة لزجـة، تمامًا كتلك التي بدأت زحفها ذات يوم من الجنوب.

أحسّ بالامتعاض والسأم.. وأثار ضيقه أنه قد يشهد تكرار أحداث ليسـت ممتعـة.. فها هي ذي الحشرة السمجـة تظهر من جديد. وقرر، كواجب ثقيل، أنه يجب وضع حدّ لهذا، وتساءل وهو يتمطى.. : هل ينزل إليهـا فيطؤها؟ ثم غلب على عزمه أن يبقى فـي مكانه، فلن تفعل أكثر ممـا فعلت من قبل. فلتقم فـي أي مكان، ولتتضخم كما تشاء.. ثم لتغدُ وحشًـا كالجبل، ولتتشبث بالأرض.. أي سلالـة من الوحوش تلك!! إنها كالليـل، مهما طال فلا بد أن يطرده نـور الشمس. وقد طردها من قبل هناك، ولا بد أنه سيطردها أينما أقامت.

وابتسـم شديـد الإعجـاب باستنتاجه الذكي، الـذي يضمن له لذة النـوم، وصفـاء الأحلام، فمهمتـه الأولى أن يرصد الأحـلام في أقوال جميلة.. إنه العمل السامي الجدير بصاحب تلك الأملاك، المتربعة في القلب من الأرض.. فليحدث ما يحدث، فكل شيء عابر.

هـذه الاستنتاجـات لم تمنعـه من تفقـد الحشرة فـي زحفها فوق الرمـال، فهـو كشاعر، يمتلك نفسًـا لطيفة، وشعـورًا مرهفًا، يجعلانه محبًّـا للصفاء، كارهًا للبقـع والحشرات المؤذيـة، متحينًا الفرص، أو مترقبًا ذلك النور الذي يمحوها، أو السيف الذي يقصمها.

أخيـرًا استقرت الحشرة.. كان ثمّ الكثير مـن النخيل والناس، في صفحـة مترامية مـن الرمال. هذه المـرة تغلغلت بين جـذوع النخيل،

وتمــددت كالهلام اللــزج، فافترشت الأرض، حتى لم تعـد تشفّ دوائر الخضرة المتراصة عن صفرة الرمال، بل عن سواد الحشرة.

وتســاءل: هــل تغـدو وحشًا هنــا كما غدت هنــاك؟ واستنتــج مجددًا بحصافته، أن ذلــك الوحش الهائل الذي مزقه النور قد تحولت مزقه إلى وحوش صغيرة، اختارت لها أماكن متفرقة من الأرض. ولم يسؤه كثيرًا أن أرض النخيل كانت إحدى تلك الأماكن، فالنخيل يعلو ويزداد خضرة، على الرغـم من أن الأرض من تحته يـكاد يغطيها تمامًا السواد البغيض، وعما قليل سيطول السعف ويغلظ أكثر، فيعفيه من رؤية كل أثر للبقعة تحته.

الأهــم من ذلك كله، تلك التحركات التي راحــت تبرز أكثر، فأكثر في منبسطات الرمــال.. لقد ازداد أولئك الذين يقتتلون عددًا، وراحت أرضــ النور على ضفــاف النهر المتلألــئ تعج بالمحاربيــن القادمين عبــر البحار، وتخوم الصحراء الشمالية تعــجّ هي الأخرى بالمحاربين القادمين من خلف الجبال..

فكــر، وهــو يتثــاءب: أبنــاء الرمــال يقتتلــون، ويقرضــون الشّعر، ويتوالــدون وهم محصورون في تلك الصحراء التــي تحيط بها البحار والجبــال والأعــداء مــن كل جانــب دون أن يخطر ببالهم غيــر التنافر والتنابذ، لا يجمعهم إلا ذلك البيت العتيق الذي تحفّ به الجبال السود، يأتونــه رجالاً، وعلى كل ضامــر يأتين من كل فج عميــق؛ ليدوروا حوله ويشهدوا منافع لهم.. هناك، وعندئذ فقط، لا يقتتلون...

إنه لا يذكر متى قام هذا البناء المربع المغبر الجليل، فهو ما انفك يــراه ويراه.. كأنه أقــدم شيء فوق هذه الرمال.. ومــن أعماق الذاكرة

الموغلـة فـي الزمن، استطـاع أن يستحضر تلك القلـة المظفرة، التي تحـدّت متاهات الرمـال ولهيب الشمس، تاركة وراءهـا رواء السواحل، وخصـب السهول، وخضـرة الضفاف؛ لتقيم عند هـذا البيت مع أبناء الرمـال المتناحريـن أبدًا، والذين ما انفكوا يجيئـون من فلواتهم، في مواقيت ثابتة، ثم يتفرقون ليستعدوا للاقتتال من جديد..

وانتبـه إلـى أنه بات كثيـر الانشغال بأبناء الرمـال، وذلك البيت.. وعندمـا كانـت الحشرة اللزجة القابعـة هناك تعود إلـى ذاكرته، كان ينقـب بعينيه مـن مرقبه بين النخيل المتطاول، ويحـدّ بصره ليكتشف أنهـا لا تزال هنـاك، تتسع وتتـداح متطامنة ملتصقـة بالأرض، تظلل نفسهـا بالمزيد من النخيل والخضرة والسيوف والذهب!! لتخفيها عن عينيه..

وفـي كل مرة من تلك المرات التي كان يتذكر فيها البقعة البغيضة كان أبنـاء الرمـال ينتزعونهـا من ذاكرتـه.. ليس انتزاعًـا تامًا.. فهو يـدرك على نحو مبهم أنهـا هناك.. وأنها، وإن لم تفعـل شيئًا ذا بال.. لطخـة سوداء قيبحة تعكـر بريق السهـول ونضرة النخيـل، حتى وهي مختفيـة تحت قشرة الخضرة التـي تلتحفها.. ليسـت مختفية تمامًا.. فهو يستطيع رؤيتها بوضوح تام إذا ما أمعن النظر وأحدّه..

وكان يتهـرب من هـذه الحقيقة، ويحاول الاكتفـاء بنظرة سطحية غير منقبة؛ أملاً في قطع خيط ملحاح من القلق، يتلولب بإصرار سمج أمام الصور في المخيلة، والأفكار في الرأس. ولم يدُر في خلده التساؤل عـن سر خيط القلق ذاك، كل ما يحضره ذكريـات عتيقة شبه مندثرة

عن الوحش البغيض الذي دكّه النور على السواحل الغربية. ولا يستطيع أن يمحو من ذاكرته أن تلك البقعة الهائلة بعض من شظاياه، وهي، وإن كانت لن تتحول إلى وحش آخر، جزء منه، بكل ذكرياته السلبية.. والحق أن استكانتها هكذا، وجرمها الذي لا عمق له أرجعا القلق إلى المرتبة الثانية في زخم ذلك التغيير الذي راحت عينه تلتقطه وتميزه في حياة أبناء الرمال، فقد لاحظ أنهم بدؤوا يخرجون عن رتوب حياتهم شيئًا فشيئًا..

حقًّا إنهم ما انفكوا يقتتلون بالسيوف وبالألسنة، لكنه يستطيع القول اليوم: إنهم يتكتلون. تكبر تجمعاتهم النادرة المتناثرة في قلب الرمال، ولا سيما تلك التي بين الجبال السود، حيث يقوم البيت العتيق، وفي أرض النخيل حيث تنداح تلك البقعة البغيضة..

تجمعات أبناء الرمال الصغيرة تزداد وتتضح، وتزحف بخطوط شبه ثابتة، وإن كانت ناصلة وصفيقة، إلى أرض النور على شواطئ البحر المتلألئ، وإلى جبال أقصى الجنوب الداكنة الخضرة، ذات المياه الثرة، وإلى المدائن العريقة الخصبة في أقصى الشمال.. أبناء الرمال لم يعودوا مسجونين في جزيرة الرمل.. مع ذلك، فهم ما انفكوا يقتتلون ويتفانون.. ووجد نفسه يتساءل: إلى متى؟!

أول مرة يعييه الإحساس بالزمن، وانتظار ما سيكون.. حالة غريبة وغير مريحة.. كان من قبل يقتصر على رصد الأحداث والتفرج بها، وإن لم يخلُ الأمر من بعض المنغصات والمسرات. أما اليوم، فثم شيء جديد يفرض نفسه، شيء مرتبط بما تحدثه تحركات أبناء الرمال..

لم يعد نومه هنيئًا.. تواتــر صحوه بشكل مفاجئ على ضجيج أبناء الرمــال.. لم يكونوا صامتين من قبل، لكنه كان قد اعتاد على صخبهم القديم، فهو يغفو ويغطّ في نومه وهم يصخبون، ثم يهدؤون ثم يعيدون الكــرة في منامه وتحــت سمعه وبصره.. أما الآن فقــد تبدلت الحال.. تبدل نوع الصخب.. أيقظه من نومه مرات ومرات.. فلا بد إذًا أن يقلقه الأمــر، فهو يشعر بطريقة ما أن ثمة ما سيحدث.. أبناء الرمال مقبلون علــى أمر ما، كل ما يــراه يشير إلى أن تلك القفــار ستشهد حدثًا يبدل الحيــاة فوقهــا.. لم يقلقه الأمر على الرغم من كونــه قد أتعبه، ونغّص عليه شطحات الخيال الراتبة المتأنية، وأثار فيه فضولاً مرهقًا، يقضي إعمال الفكر بعد طول ركود.

حدســ شديد القوة راح ينبض في فكــره الفتي الناشط.. لا بد من حدث ما.. حدث غير المعارك الفعلية والكلامية، لا بد من حدث يوقظ أبنــاء الرمال، ذلك الشيء الذي استيقظ فيــه، ذلك الذي دعاه همّاً.. كان يحمل شعورا سلبيًّا لكل ما ينغص عليه استرخاءه ودعته. أما اليوم، فثمــة شــيء جديد يغزوه.. إنــه يتلذذ بذلك الهم الــذي ينال من متعته الأزليــة. حتى الصداع الــذي يحمله إليه إعمال الفكر بــات يستعذبه!! لذاذاته باتت من نوع آخر.. باتت أكثر عمقًا وأدوم أثرًا، أحس أنه يحمل شعــورًا مبهجًــا ومنشطاً، شعورًا بتقدير ذاته وقيمتهــا، وأن هذه الذات لا بــد أن تفعــل شيئًــا يليق بما تحظى بــه من قــدرات.. إن الهواء الذي يتنفســه، والشمس التي تتخلله جديــران باستخراج شيء ما من كيانه، إن لوجــوده غاية.. ولا بد أن يكون شيئًا ما غير المتفرج والمنفعل، لا بد أن يماهي النور والهواء، أن يعطي كما يعطيان.. إنه قادر على ذلك.

تحســس عينيه.. جربهما في رؤية أبعــاد أخرى غير تلك التي كانتا تقفان عندها، فوجدهما مطواعتين. رأتا ما لم يتوقع أن تريا، وتحسس ذراعيــه، فوجد فيهما قوة لم يكــن يتصور وجودها.. إنــه شعور جديد يرهقه ويحرقه، لكنه يجعل لكل شيء من حوله معنى آخر.

ها هو ذا اليوم مخلوق جديد، تعصف به فتنة اليقظة، وشباب الفكر وتألقه.. إنه انقلاب دعاه إلى إعادة التفكير في كل شيء بشكل عاصف.. لــم يقل: لماذا أنا هنا؟ لم يقل: لمــاذا أقصر همي على المراقبة؟ ولم يقــل: كيف؟ بل لــم يقل شيئًا قط. لقد نهض مــن مرقبه، واقتلع قدميه مــرة واحدة من بــرج التأمل الكسول، قاطعًا بخطــوة مصممة المسافة الشاسعة بين برجه وأرض أبناء الرمال.

عندمــا ثبّت قدميــه حيث اختار، إلى جانب البيــت العتيق، كان كل مــا هو هناك يشتعــل ويتأجج. كان من أبناء الرمال مــن انصهر تمامًا وشــكل من جديد، فصار له منكبان عريضان قويان، وعينان متلألئتان باصرتان، وقلب يشع نورًا بديعًا، ينتهي الطرف دون نهايات خيوطه.

لم يعد مراقبًا.. تجند في صفوف ذوي المناكب والعيون والقلوب.. قفزة هائلــة من ذلــك المرقب النائي إلــى تلك الأرض التي لن تعــرف غير العمل المهتدي. كانوا قومًا آخرين، ينسكب في دمائهم نور من السماء، يتنزل على رجــل منهم فيمسك به ثم يفتح قبضته، فينطلق منها ذلك النور الخارق إلى أعماق كل القلوب، يبثها الرسالة: العمل المخلص في سبيل الخير..

ولأنــه كان هنا الكثيــر من القلوب غير الملوثــة، ولأن فيها انبساط الصحراء ووضوحها وسطوعها، واتصالها بالأبد والمطلق، وإحساسها

الحي بالنقاء والحقيقة، فقد حملت نور السماء، وراحت تغرسه وتتعهده، وتزيح عن طريقه العقبات ليمتد وينداح، ويتخذ طريقه سربًا إلى الدنيا بأسرها.. كانت تلك القلوب مخلصة إخلاصًا موجعًا، ومتجردة تجردًا معجزًا، ولذلك صنعت المعجزات.

لعلنا لم نزل نذكر ذلك المرقب القديم.. لقد تخلى تمامًا عن صفته تلك، صار جزءًا من حملة النور.. تشظى وسكن رؤوسهم وقلوبهم جميعًا.. استبدل بالمراقبة التدبير المسترشد بنور السماء. وأحس به الجميع، وراحوا يبتدعون له التسميات.. هناك من سموه الوعي، وهناك من سموه العقل، وهناك من سموه الوجدان..

كان كلما اعتصره التعب جنح بخياله دقائق إلى مرقبه البعيد، الذي يكاد يتلاشى في أفق الذاكرة، ولا يزيد على ذلك.. لقد استبدل مغتبطاً وصب النقاء، والسعي المهتدي الهادي، بدعة التأمل والراحة وخفض الخمول..

أحسّ أنه على نحو ما قد اهتدى إلى سر الحياة، ولم يكن سرها ماءً في مهالك، عليه اجتياز الأخطار إليها.. كان كلمة.. ولم تكن الكلمة شيئًا جديدًا بالنسبة إليه، لكنه اكتشف أنها كل شيء.. وبهذا الاكتشاف صار يملك قوة كالسحر!! قوة تختصر القوى كلها، وتوحدها لتطلقها هادرة جديرة بتغيير وجه الأرض..

صار همه الآن توطيد تلك القوة الخارقة، فقد أدرك أنه ليس الوحيد الذي أدرك سر الحياة ذاك. إن ذلك السر ليس طلسمًا، ولا هو مكنون خفي، بل حقيقة راسخة متجلية حيثما وجدت من يبحث عنها، وينظر

فــي الاتجاه الصحيح إليها، ويحييها في القلوب.. ما أبسط، وما أعظم ذلك السر!! وما أجلّ من يهتدي إلى حمله وإحيائه!!

كانــت البصيرة التي استيقظت ترعى ســر الحياة فوق هذه الرمال، فبدا عجيبًا مهيبًا كالمعجزات، ولكنه لم يكن غريبًا أبدًا. كان سر الحياة، لذلك فهو موجود حيثما وجدت الحياة، ومهمته الآن إيقاظه وبعثه..

كانــت تعتريه حالة من الانسجــام والرضا والتوهج، بلغ به ما يشبه الطرب، وهــو يطير بكنزه المعجز إلى أماكن وقلــوب قصية أو غريبة، ثــم يكتشف أن ما معه ليس غريبًا، وليس مبتدعًا، إنه موجود في صدور متفرقــات، وعلى ألسنــة مختلفة، إنــه هنالك، وهناك، وهنــا، وحيثما بحثت عنه.. قد يندر وجوده حقًّا، لكنه لا ينعدم أبدًا.

لقــد حدث أن غدا تيارًا كمــا هو اليوم، غدا كذلك في أماكن كثيرة من تلــك الأرضين، وفي أزمنة مختلفة.. كما حــدّث الناس قابس ذلك النور، الذي تطلقه يداه المباركتان في القلوب.

ذلــك التوهــج.. تلك القمــة من الروعــة التي انسكبــت فيه، كانت جديــرة بالاستئثار بكل خلجاته، فراح يستمد منهــا قوة باهرة، لا تكاد تعترف بعقبات الطريق، بــل تطؤها وتتخطاها، في خطوات أكبر بكثير مــن أن تتأثر بها. لكنــه شيئًا فشيئًا، راح يبرز أمام عينيه مقابل راسخ، كاد يعفي عليه توهج السر الباهر، إنه ما يصرّ على تسميته بالضلال.. الهدى والضلال.. شاء أم أبى.

مرة أخرى يتوقف مذهولاً.. هذا هو إذًا المفتاح، الهدى والضلال.. صراعهما الأبدي الملازم للحياة. ودون سابق إرهاص اتجهت عيناه إلى

أرض النخيل.. كان سطوع النور يكاد يخفي تلك البقعة المتأرضة في مغارسه المظلة.. ما تزال هناك!! وفي هجمة مفاجأة للذاكرة، استعاد مشهد ذلك النور الذي فتتها وشتتها في الآفاق.. ذلك النور.. تجلي سر الحياة.. كان يومها يتوهج هناك، كما يتوهج اليوم هنا، وحاول الضلال طمسه، فانتصر على الضلال.. وعاد الضلال يحتمي بالمخابئ، ويكمن ريثما يستعيد أنفاسه، ليتصدى للهدى أنّى وجد، ومن جديد.

كل ذلك الضياء، وما تزال البقعة كما هي! يحتها النور، لكنه لا يقضي عليها تمامًا.. حقا إنه الأقوى، ولكنها دائمًا إلى جانبه.. بل هي لازمة لوجوده، بل تتقارض وإياه الوجود والضمائر والأرضين، كلما ازداد نقصت، وكلما نقص ازدادت.. قد تعظم أو تضؤل أو تسوى بها الأرض، لكنها لا تختفي.

بذلك المفهوم راح يحدّ البصر إلى سواد أرض النخيل.. وهو يستعيد ذكرياته غير الواعية مع البقعة المؤرقة: كم هي عنيدة، وكم هي راسخة!! إنها جزء من سرّ الوجود.. ترى هل الوجود اليوم في مأمن منها؟ ربما.. فهو في أوج شبابه وعنفوانه.

بالتزامن تمامًا وهذه الفكرة، خطر له أن معركة ستبدأ، أو أن الظلام يخطط لجولة جديدة في المعركة الأبدية بينه وبين النور. إن فكرة التصدي والعداء تتأجج لدى الأضعف، كلما رأى انتصارات خصمه.. قد لا يستطيع، أو قد لا يجد من الحكمة التصدي له، وهو في أفضل قممه، لكنه حتمًا يبدأ التخطيط لذلك.

فتح عينيه بقلق.. فقد بدا له أن سطح البقعة يضطرب بتموجات عميقة، لكنها طفيفة لا تكاد ترى، لولا اهتزازات يشي بها بعض السعف

الغضـن.. وبدا واعيًا كونها خطرًا محتمــلاً، وإن لم يكتشف ماهيته، ولا موضعــه مما يجري من أحداث.. الشيء الوحيد المؤكد لديه أنها شيء كريه.. أمــا ماضيها، وتاريخها الحافل مع النــور، فقد تواريا في زاوية الذاكرة التي أباحها بكل قدراتها، لوهج الهدى المتفجر اليوم فوق أرض النخيل. حتى فكرة كونها تغلي في أعماقها لم تحز الكثير من همه.

وانقضــى زمن طويل جدًّا قبل أن يأتــي اليوم الذي بدأ يلاحظ فيه مــن جديد أنها تنمــو وتكبر.. وداهمه قلق مفاجــئ.. ومن جديد، وكما فــي المرة الأولى، لم يلاحــظ متى بدأت تنمو.. إنهــا دائمًا تبدأ عملها في الخفاء، حتى خيل إليه أنه مستمر، لم ينقطع، فهو لا حدود واضحة له.

هل تصطــدم بالنور الجديــد؟ استغرقه التفكير فــي الأمر.. كيف لــم ينتبه من قبل إلى أن ذلــك قد يحدث!! وهزته الفكــرة.. إنها تعني الكثير.. وفي محاولة لاتقاء زوبعة، لا يرغب في التعرض لها، راح يقسر نفســه على تحديد أفــكاره: ليكف عن استعمــال الكلمات ذات الدلالات العامــة. فما هو ذلــك الكثير الذي تعنيه كلمــة «تصطدم»؟ وكمن تلقى صفعــة منتظرة أقرّ باستسلام: لا بدّ من العداء.. وهو سيجرّ حتمًا إلى المواجهة..

ومــن مجاهل الذاكــرة، التي أنعشها أصحــاب الصحائف العتيقة، المقيمون في المدائن والواحات، أو القادمون من بلاد الجبال والأنهار فــي الشمال والشرق، حيث تــأكل الخضرة والبحر شيئًــا فشيئًا صفرة الرمــل، وحيث تتفاعل، منذ أزمنة ممعنة في القدم، أحداث لا تنقطع..

من هذه المجاهل، التـي أنقذتها صحائف الأولين من سطوة النسيان، انبعث تاريخ الظلام..

إنـه يبحث له عن مـكان.. وفي كل مرة يتصدى لـه النور، ويمحقه حتـى تنمحي معالمه.. ثم تتوالى القرون، ويتخـذ له منافذ إلى ممالك النور.. يتسرب متنكرًا في صمت، ويتغلغل حيث استطاع ضئيلاً صفيقًا، لا يلبث أن يكبر ويغلظ. ويظل في كل أطواره يحلم بالتمكن في الأرض، وانتزاع السيادة فيها بالقضاء على النور..

هـذا العناد، هذا القانون من قوانين الحياة، سيشهد اليوم تطبيقًا جديدًا وحيًا، هنا في أرض الرمال.. كيف لم يفهم الظلام عبر كل تلك الحقب أن انتصار النور حتم؟!.. لا بد أنه قد فهم، لكنه يحلم بأن يغير ذلك الحتم، ويسعى إلى ذلك مستميتًا، فلا يفلح أكثر من إطالة شقوته في ترقب انقضاض النور.

وألفـى نفسه مدلَّهًا، ينصهر كيانه في هتافـه: أيها النور.. ستبقى منتصرًا.

ودمعـت عينا النور اعتزازًا وغبطـة وإشفاقًا. وقطبت بحقد ماحق خيوط الظلام المتسللـة من خلال السعف المغمور بالشمس، وتمعجت فـي غضب أكمه أبكم أصـم. أما سر الحياة الأبدي الراسخ، فقد كرس بمهابة المسلّمة القائلة: إنما المعوّل على القصد.

كان لديـه آنذاك ما يستطيـع عمله.. إن من الممكن ألا تظل أمانيه نيرانًا في داخله، تحول جدران الظلام المحدقة به دون انبعاث شررها.. ولـم يخطر ببالـه قط أن يفتر سعيه يومًـا، فيسيطر الظلام، ويتصدى لكل ومضة يبثها احتراقه، فيعيدها إلى سويدائه، ويدمره بها.

وانطلق.. عرض على رسول السماء مخاوفه وقلقه.. وكما في كل مرة وجد الشفاء هناك.. وجد أن النصر لمن يسعى، حتى إذا ما تواكب السعيان، فالنصر للنور لا محالة. وجد أن مثل النور والظلام كمثل الآية الخالدة: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾.

واكتشف أن السعي المواكب لسعي الظلام ليس سهلاً ولا بسيطاً، فهو وإن كان لا يدله على القوى العليا من خير وحق، يعمل باستماتة لتسخير القوى الأدنى لخدمة مآربه.. فميدانه اللذائذ الآنية، والمصالح المادية، ووسيلته إليها المحمدة الوحيدة التي يمتلك، وهي الذكاء. وقد هداه إلى اختيار الطريق الأقصر، والركائب الأكثر راحة، والغايات الأقرب منالاً، والأشد بريقًا ودغدغة للغرائز ودنيء الرغبات.

السعي المواكب لسعي الظلام صعب وقاس، لكنه ممتع ومتاح.. وبلا تردد، فتح كل مصاريع كل الأبواب أمام كل التضحيات.. ما من شيء أثمن من سيادة النور، لذلك فكل التضحيات واردة وواقعة ولا بد منها.

وهكذا بدأت المعركة، بدأها الظلام، ولو لم يفعل لبدأها باسم النور.. المراقبة وحدها كشفت أسرارًا، كاد يجن دهشة لعدم انكشافها من قبل.. تحت أي ستار واهٍ يعمل ذلك السواد الرهيب!! وكالمصعوق.. كالمذبوح اكتشف أنه كان يعمل فقط في غفلة النور.. أنه لم يكن ليستطيع التحرك لولا تلك الغفلة.

وراح يضرب رأسه بمجمع كفيه.. سلاح الظلام بين يدي..!! لا سبيل له إلى تدمير النور إلا بغفلتي وتفريطي!! يا للإعجاز!! ما أروع اكتشاف السر! وما أشد ما يفزع ويروع!

وتبصّر.. إنه لحق.. حيث يتهاون النور ينفلت من أغلاله الظلام. حيث يخلي النور المكان يملؤه الظلام.. إنها سنة اللّٰه..

ولم يتهاون، اتجه بكل قواه إلى السواد يرقبه، لا من مرقبه البعيد، بل من هنا، من بين جذوع النخيل، وفوق الأرض التي يطؤها فيتعجج الظلام كالغبار اللزج في مواطئ قدميه، يفور ويخمد، ثم ينجحر مرغمًا، ويلبث مكشرًا عن نيوب الغادر المصفد. لقد أدرك أن كل غفلة له تعني الهلاك له وللنور الذي يحمل شعلته في صدره وفي يده.

راح ينعم ويترف ببهاء وسطوة وقوة النور، حتى خيل إليه أنه لا قائمة للظلام بعد اليوم. وأوشك أن يعيد النظر في كل ما توصل إليه من استنتاجات سابقة. فهذه الأرض تستحم بضياء أخاذ، يمتد ويترقرق فوق الرمال.. ضياء يختلف وذاك الذي تبثه الشمس في النهار، والقمر في الليل.. تلك الروعة المهيمنة بسلطان بيّن تتمرد على ما استخلص من قوانين.. أي ظلام لا يبدده ويدحره بهاؤه السرمدي!! إن شعلة خافتة تقهر جحافل من الظلام، وتدفع بها إلى الهرب والتواري. فكيف بهذا التوهج الفريد الهائل..

راح يكابد عشقًا لم يعرف له تسمية، وانصهر في بوتقة النور الباهر. فشعر أنه ازداد في داخله تألقًا وسطوعًا.. وتحسس منكبيه.. سيقويان.. أجل سيقويان على حمل ذلك النور إلى البعيد. ومدّ بصره إلى حيث كان يراقب من قبل، إلى قمم الشمال، وغابات الشرق، إلى بحار الجنوب والغرب، بل إلى ما وراء ذلك.. ولم لا؟ إن من أوتي هذا النعيم لا بد أن يتحرق شوقًا إلى إغداقه.

فجأة، وبسرعة لم تسعفه باستحضار ذاته المشتتة طربًا، انفجرت علـى صفحة الظلام فقاعة وثانية وثالثة، وسال منها سواد لزج بغيض. ولـم يكد يرفـع حاجبيه دهشة ومفاجـأة، وقد احتبســت أنفاسه، حتى انداحــت أمواج النــور تسد الأفق، وتغـرق السائل الأســود، وتعفّي على آثاره تمامًا.

كانت الفقاعات كصرخة ثاقبة في وادٍ سحيق ساكن، انبثقت بسرعة خاطفــة، فاصطدمت بحوافه، وارتمت في القعر جثة هامدة، وتراكمت فوقها أطباق الصمت والسكون من جديد.. كأن شيئًا لم يكن..

وأمعــن النظــر إلــى حيث انفجــرت الفقاعــات قبل قليــل.. أيكون واهمًــا؟! وتلفت حوله، هــل حدث هذا فعلاً، أم هي خاطرة عبرت؟! إنه بحاجــة إلى ما يثبت له أن ما رآه كان واقعًا. ولم يكن غير تكرار ما رأى يملك أن يثبت ذلك.

تســاوت رغبته في الوقــوف على الحقيقة، وإيثــاره التشبث بدوامة الحيرة المنقذة. ثم بدأت رغبته الأبدية في عناق الحقيقة تؤلمه.. أحس أن الثمن سيكون باهظاً جدًّا.. لكنه في قرارته كان واعيًا أن هذا الثمن إن كان قــد وجب فقد وجب منذ المرة الأولــى، التي لم يستوعبها هو.. مع ذلك فقد كان فرقًا مرتبكاً، يؤرقه أنه قد يرى تلك الفقاعات في أي لحظــة كانت.. كما يؤرقه انفجارها في تلــك المرة التي لا تزال تترجّح في البرزخ الفاصل بين حدود الواقع والخيال.

وأرغم النور في ذاته على أن يفسح مكاناً للحقد والثورة.. فليذهب إلــى الجحيم ذلــك الظلام.. لم لايجتثه من موطــن قدميه، ويذروه مع

رياح الأرض؟ إنه ما دام هنا، فلا بد أن يتسرب من أي ثغرة كانت، وفي أي لحظة لايتوقعها.

وأحفظه وأثاره إصرار أمواج الظلام على التوالد والامتداد، بذلك العناد المقيت الدبق. وأججت غضبه تلك البقعة البغيضة، التي لا تنفك تنمو وتتعاظم، متربصة بالنور لحظة غفلة؛ لتعلوه فتخنقه، وتطفو فوق أشلائه.

فجأة كذلك، وكما في كل مرة، وكما كان ينتظر، بدأت ترتفع كالقدر المحتوم، فقاعة عنيدة.. وتربص منكمشًا، متوقعًا انفجارها الوشيك.. لكـن تربصه طال.. وكانـت هي تنتفخ وتتمدد. وبـرزت فقاعات أخرى اتخـذت مساراتها تحـت غلائل النور متلصصة، حتـى رفدت الفقاعة الرئيسة. فتضخمت تلك واهتزت وربت، وتفجرت تحت سمعه وبصره، وتناثر الظلام والدخان والرماد.

طار صوابه.. خيل إليه أن مقدار القار الذي فار من الانفجار سيغطي تلك البقاع كلها، ويعكر الضياء المنداح في قفارها.. لكن معجزة وقعت.. كما لو أن ريحًا ملهمة، أو كفًّا جبارة هوت من السماء، فمحقت كل ما قذفته تلـك الفقاعة المجرمة من قذى وظلام ورماد.. لـم يختفِ، ولم يتشتت، ولم تـذره الرياح، بل انسحب مـن أقاصي امتداداته، وعـاد فانسكب في فوهة الفقاعة الخاسئـة، فأخمدها.. أدار خنجرها إلى صدرها فمزقها، ودفنها في أمواج النور من جديد.. وعاد كل شيء كما كان.

لـم يكن حتى التنفس ممكنًا.. القـرار هو الممكـن الوحيد الآن.. فلينبشـ كل ذلك الظلام، وليُحـرق.. فما كان للـنـور أن يقيم فوقـه.

وها قد ثبت أنه لا بد من نفيه؛ ليباشر النور الأرض، وينفذ إلى أعماقها الخيـرة، ويعاود الخروج فـي ثمرها وشجرها ومياههـا، صافيًا نقيًّا لا يعكره الظلام.

وانتفض.. ولم تكـن صرخة تلك التي أطلقها، بل زلزالاً شقق أديم النـور المسكوب فوق تلك البقاع.. وهاله ما رأى.. كان الظلام والسواد قابعين في قعر عالمهما الدنيء، متشبثين باستماتة المنطقة التي تعشو فيها الأبصار من وهج النور.

كيـف تتجاوز قمة الخير وقمة الشر؟! كيف يجتمع النور والظلام؟! إنهمـا لا يجتمعـان قط.. قد يختبـئ الظلام خداعًا وتمويهـا في زوايا ممالك النور.. لكنه لا يبقى هناك؛ لأن النور كلما توهج توغل في الأبعاد أكثر، وأضاء المزيد من الزوايا البعيدة، حتى يعم ويسود.

وراح الظـلام المفضوح يحدق بعيون بليدة مطفـأة مهزومة.. لقد فاجـأه الانكشـاف قبل أن يتخذ أقنعتـه كما يريد.. وأعلنـت العيون ما كانـت تخفيه،وأفصحـت النظرات عمـا كانت تموهه، ألقـت به بنذالة وإفلاس وحقد أسود: الموت لكل خيط نور فوق الأرض.

كمية الحقد التي تكشفت، وحجم العداء الذي فتحت أبواب خزائنه علـى مصاريعهـا مـلأه بالذهول والنـدم والخوف، وانقلـب على ذاته يقرّعهـا.. أي غفلة تلـك؟! كيف تأتى أن تصل الأمـور إلى هذا الحد؟! كيـف لم يتحرك من قبـل؟! كيف لم يخطر بباله الغوص إلى الأعماق للوقـوف على حقيقة نيـات الظلام، الذي يعرف أنـه يجثم هنا؟! ذلك الخـداع المجسّد.. كيف استغـل الظلام سكوته عنـه، وطيبته ونقاءه؟

كيـف استفاد مـن ضحالة خبرتـه بالممارسـات الدنيئـة، والأساليب الماكـرة؟ أهـو مخطئ؟ هـل كان ينبغـي أن يمتلـك شيئًا مـن الخبث والخداع والحقد، ليتعرفها في عيون أعدائه؟!

وارتعـد، وهو يتأمـل متمتمًا: لو أنني كنت أقل قـوة مني الآن! لو أن النـور الذي أستظـل بلوائه لم يصل بعـد إلى أوجه! لـو تبادلت الأدوار والظـلام! لو أنه هو الأقـوى!.. وصعقه الواقع الذي تكشف فجأة بكل ما فيه من مرارة الحقيقة.

الأمانة التي يحملها، أمانة صيانة النور، وفتح النوافذ أمام خيوطه لتغمـر الأرض، تقتضيه الآن استخـدام لغة الظلام؛ لأنها الوحيدة التي تفلـح.. لا بديل من ذلك، إما أن يتحـرك فيقتل الظلام، أو يقعد فيقتل النور.. وكان الأمر محسومًا بطبيعته.

طفـق يرقب جحافل الظلام ترتحـل.. واستوقفه أن ثمّ مستعمرات تتشبث بأمكنتها بوقاحة وصلف.. واستيقظ فيه التاريخ.. انبعث مجسمًا مجلجـلاً، وملأ عليه أقطار إحساسه وإدراكه تساؤل مستنكر: أمكنتها! أي أمكنة تلك التي يصحّ أن ينسب إليها؟! وانبثق سؤال، لم يكن غريبًا، ولكنه كان واضحًا ومحددًا: من أين جاءت؟!

تطـاول الأزمان موّه البدايات.. كل ما يذكـره أنها مكروهة مؤذية، تتنقـل بأذاها وسوادهـا أبدًا، حتى إذا ما استقـرت، تفرغت لممارسة الفسـاد، فانقلبت عليها الأرض التي تقلهـا، ففتتتها ولفظتها، ونفت ما تبقى من فلولها..

أحسّ بارتياح مجهول الماهية.. طبيعة الكون تأبى الظلام والسواد، تسلبـه دائمًا ما تيسر من أسلحته.. لكنهـا لا تقضي عليه تمامًا، تتركه

ليشب ألق النور، ولتنقي أبناءه، وتوقظ فيهم الشوق إلى الخير، كلما خفت إحساسهم به، وشغلتهم عن تكريسه وحمايته شؤونهم وشجونهم.

أرهقــه الأمر.. ألهاه عن مهمته الأساسية.. النور الآن نقي وصافٍ، لا عفــن ولا ســواد ولا ظلام يتربص به في منبعــه هنا.. أحس بالحاجة إلى شــيء من راحة.. وساورته أطياف بعيــدة، ورؤى لم يعد لها مكان، تنفســت ذكريات ضياء الضحى الكسول في المرقب البعيد، والمرئيات الغائمة الهائمة خيولاً وأشعارًا وصبايا..

ولكــن أين هــي الراحة التي يحتاجهــا؟.. لم تعد هنــا.. لقد بدلها راحــة أخــرى.. راحة ذات نكهة مختلفــة، راحة عميقة، تــكاد جذورها تغيــب في غياهــب الإدراك، كم تغيب في أعماق الــروح والجسد.. إنها الراحــة الحقيقيــة، التي ينعــم بسلامها من يرزح تحــت وطأة النصب الناجم عن العمل الجاد المثمر البناء..

بقدر الجهد والعرق اللذين يبذلهما، وهو يضرب في الأرض، فاتحًا بجســده المرهــق السبل المغلقــة أمام النــور.. بقدر وصــب الترحال، والحمــل الذي ينقض الظهر يجني ثمار تلك الراحة المجهولة الماهية، المستعصيــة علــى التجلــي، إلا مــن خــلال الإحساس النقــي الأصيل المتجذر في أغوار الروح والجسد.

كان ذلك الاكتشاف مثيرًا، وراح يبحث في تلافيفه.. ما الذي تغير؟ أثار ذلــك ابتسامته.. الكثيــر الكثير.. لا يستطيــع أن يحصي أو يحدد مــا تغير فيه، ولكــن يمكن جمعه في عبارة واحــدة: الانصهار في النور الجديــد. يا للعجب!! كل مــا يراه اليوم يمرّ عبر ذلــك النور.. واشرأبّ

ناشـرًا ذراعيه إلى أقصى مداهما، كأنه يريد أن يكبر حتى يملأ الدنيا بمـا لديه من نـور، أو يحتويها في ذلـك الصدر المضـيء الكبير.. إنه اليـوم مخلـوق مختلف، مخلـوق عمده نور اختـرق كيانـه ومازجه، إنه العشق! إنه الحياة!

ومدّ عينيـه يرقب بقايا الظلام الناصلة، وهـي تتلاشى في الأفق، هزيلة تكاد تذوب في الرمال. وحاك في صدره قلق.. تذكر صورًا سابقة من أيام المرصد المنعزل.. صورًا كهذه.. حيث بقايا الظلام المندحر تمخر متفرقة تائهة الصحارى والجبال والهضاب وتذوب ثمّ..

وطـرد من خياله الفكـرة.. إن الظلام اليوم مـن الضعف والهزال بمكان لا يسمح له بإعادة الكرة في أي مكان كان من الأرض، لقد دحره النـور إلى الأبد.. حقًّا إنـه سيبقى.. فهي السنة التي يقوم عليها الكون، ولكن لن تكون له صولة ولا وطن، ولن يمتلك سلاحًا فاعلاً، يستطيع به تهديد النور، وسدّ المنفذ دونه.

بـدت الأمـور كما يجـب أن تكـون، وراح يحمل هواه وحبـه ونصبه وعشقـه فوق كاهلـه، وينطلق به تثخنـه الجراح، ويمضـه فقد الأحبة، ويملـؤه الغدر والخيانـة والأذى حزنًا وهمًّا. لكن البلسـم والترياق كانا حاضرين أبدًا، ذلك الحبيب الذي يحمله في كل ذرة من كيانه، ويغرس منـه فسائـل مباركة، أصلها ثابـت وفرعها في السمـاء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها..

أصبـح ذلـك اعتيادًا، إذ تطـاول عليه الأمد، وكمـا لا بد أن يحدث دائمًا، أسكره بهـاء النور، واستيقظ فيه حنينه القديم إلى التنعم الذي

يكاد يتوارى في تلافيف الأيام.. التنعم بذلك الجمال الباهر، الذي صنعه اللّه علــى يديه، هنا وهنــاك، وفي كل مكان.. وراحــت ليالي وصباحات المرقب، الغارقة في لذاذات كاد ينساها، تومئ إليه من بعيد، واستيقظ فــي أعماقه شيء يشبــه الحنين إلى ذلك العهد الملفــع ببريق وجاذبية الذكريات البعيدة.. وكان الظلام هاجعًا في أغلاله لا يريم..

قــاوم.. ثم لم يعد يقاوم، فمن حرّم زينــة اللّه التي أخرج لعباده؟! هــذا ما استقر في نفســه بعد عشرات من المقــولات التي تواترت على خاطره..

هكذا غمس أصابع قدمه في اللجة القديمة الجديدة بتردد.. هكذا استجــاب لنداء الحنيــن الحنون المغري.. ثم راح يغوصــ قليلاً قليلاً، وبقدر.. فما الضير في بعض ذلك في تلك الدنيا الجميلة التي صنع!

هكــذا بدا يستيقظ فيه الإحساس بمــا اكتسب، فكنوزه التي منحته إياها فتنة الرمل الذهبي الساحر، ونقاء الأفق اللازوردي الفريد، وتلك الأرواح العاملــة الشفافة التي عمرت ممالكــه الصغيرة الأولى، أضيف إليهــا الآن الكثيــر الكثير.. لقد امتــزج بها النور البهــي، فأضاء كل ما فيهــا، نقاها وعرّاهــا، وكشف جوهرها، فدفع بالغث منهــا إلى الوراء، وجلا الثمين، وعمّده بجلاله وجماله وعظمته، حتى بات ذا تفرد معجز لن يتكرر.. إنه يكاد لا يعرف اليوم صاحب المرقب القديم البعيد ذاك، حيث يقوده الحنين إلى الجذور التي لا تموت أبدًا.

بهذه الدفقة من الأفكار اقترب من المرقب القديم.. كان لا بد من إزاحــة ما يقف في الطريق إليه.. الأشجــار التي نمت وأعطت وشاخت

وماتـت وتراكمت حطبًـا ففحمًا.. الحجـارة التي اقتلعها مـن السفوح والقمـم كرّ الليالـي واختلاف الأعصـر... الغبار الكثيـف المتحجر.. وعناكـب الزمـان الهائلة المعششـة في كل زاوية وكل ركـن.. وغموض الماضي المهيمن بتسلط وغطرسة وعناد.. لكن المفاتيح كلها كانت في يده. هل تستعصي العودة إلى الوراء بضع خطوات على من امتلك أزمّة الخطوات، فربط أقطـار الدنيا وأفكار البشر عبـر المسافات والأبعاد والأزمـان؟! هكذا بـدأ خطوته الأولى إلى الخلف، بتحـدٍّ تارة، وبغريزة الارتباط بالماضي والحنين إليه أخرى.

وشغلـه العالـم القديـم الجديـد، كان عالمًـا آخر، لـم يكن عالم المرقب الذي استعاد ذكرياته فيه، ولا عالم النور الذي يحياه.. وتوقف قليلاً عند تلك الكلمة، ثم نحّى شبح التردد: أجل إنه ما زال يحياه..

المرة الأولى التـي دخل فيها المرقب أثبتت له أنه، على الرغم من كونه ما زال هنا، فهو ليس هنا.. المرقب هو هو.. الآفاق كما تركها منذ مئات السنين العاملة الناصبة.. وومضت الكلمتان في فكره.. هنا يحس بوضوح بمبلغ ما كابد، منذ ترك هذا المكان حتى عودته إليه.

ودفعه الفضول والحنين إلى مقعده القديم، فهيأه لجلسة تعيد إليه الزمـان الذي كان، وغاصـ بنشوة، حيث قضى القـرون مسترخيًا دون حراك، يراقـب النجوم والتخوم.. ومدّ بصـره يتقرّاها بلهفة من يلقى صديقًا بعد طول فراق.. ها هي ذي كما تركها.. وسرعان ما استيقظت الذكريـات.. وطفق يتلفـت مأخوذًا.. كل مـا تركه هنا مـازال بإمكانه أن يـراه.. كأنـه ينتظره منذ أن ناداه النـور.. كل شيء إلا هو. أحس أنه

اثنان.. وأحس، مندهشًا، أنهما يتصارعان، بل أحس أنهما، منذ زمن لم يستطع تحديده، قد بدأا يتصارعان..

لم يتردد لحظة واحدة في التسليم بأن الغلبة ستكون لكيانه الجديد، كان ظاهرًا التفوق في كل شيء، إلا أن الأول كان راسخًا وصامدًا، بحيث لا يمكن تصور محوه. كان أحيانًا يراهما يتعانقان حتى تضيع معالم الصراع، ويخيل إليه أن ما يراه هو الحقيقة الثابتة الباقية، ثم فجأة يعودان إلى التمايز، فالتنافر، فالصراع...

راح يكابد إحساسًا بالحيرة والاضطراب، وأشفق في مواقف كثيرة أن يجد الكيان الجديد سيدًا متفردًا، ينمحي إلى جواره الكيان العتيد، فقد كان يدرك ولا يزال، أن من خصائص النور الذي شغفه حبًّا محو الظلام، وأن في كيانه القديم الكثير من النقاط الخيرة التي جلاها النور، وبعث فيه الحياة المشعة والتوهج الفاعل.. وفاضت مشاعره، وضم ذراعيه إلى صدره في حرص مستميت على النور الذي صار جزءًا أصيلاً منه، بل صار هو نفسه..

أحس أن كيانه القديم سيحور غصنًا في سرحة باسقة، تحتل جذورها التراب، وظلالها الأرض، وفروعها السماء. وأكسبه ذلك شيئًا من طمأنينة، وزفر زفرة ارتياح.. كان ينفر من فكرة الصراع، ولم يكن قد مارسه قط، كما تمارسه الأمم التي احتك بها، وهو يحمل إليها النور.

لم يعتد تضارب الأفكار وتزاحمها واعتراكها، فقد كان كل ما حوله ينساب في تموجات لطيفة صافية قد تتعانق، ولكنها لا تصطرع ولا

تتشابـك.. حتى عندما كانت دمــاء أبناء الصحراء تسيــل، لم يكن ما يسيلهــا أكثر مــن صدامات مصلحيــة بسيطة، لم يتعــب رأسه قط في تقصيهــا، والإحاطة بأبعادهــا، لذلك انقاد إليه الكيانــان في انسجام فريد. واعتنق قول رسول السماء القادم بالنور: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخــلاق.. وكان هذا ما تسعى إليه فطرتــه: أن يقوى ما فيه من الخير بما كان وما يكون، وأن يمحى إلى الأبد ما فيه من الظلام.

كل هذه الفلسفة تطلبتها رغبته الملحة في تلمس الجذور، والارتماء فــي سحــر ذكريات الماضي، وكلهــا كانت أسلحته ضد مــا قد يتربص بتلــك الرغبة من أخطار.. ومع ذلك كانت ثمــة خيوط رمادية، تتراءى فــي الفضاء الصافــي المذهب المنــداح أمامه.. خيــوط غير محددة الطبيعــة والمصدر، لكنها موجودة، كتلك الظلال السود المتشظية من نسف مواقع الظلام، واجتثاثه من الأرض.

اعترتــه دهشة مؤرقــة.. أقلقــه أن تستدعــي تلك الخيــوط الرمادية المريبــة الظلام إلى ذاكرته، وأربكه إدراك كنه الرابط بينهما.. ولم يجد إلا أن يقرر تنحيه جانبًا كلما تراءى له، ولم يكن ذلك صعبًا، فهناك الكثير مما يشغله، ويصلح للحلول محل ذلك الخاطر الكابوسي المريب.

إطلالــة واحدة من عالمه الأول أسلمته إلــى هذا الطوفان المرهق من الاضطراب بين ما كان وما يكون.. لذلك قرر أن يطيل أمد الراحة، متهيبًا بدء المراقبة الفضولية المتراخية كما كان يفعل من قبل..

فضوليــة متراخيــة!! وشــكّ دون مقدمــة فــي قدرته علــى التعامل والفضول والتراخي.. ووجد نفســه في حاجة إلى الكثير من استحضار

الذهــن، وشحذ الذاكرة، لاستعادة طعم هاتين الكلمتين، فقد اعتاد أن يمارســ الاهتمام بدلا من الفضول، وأِلــف أن تستوفزه الأمور، وتقتحم به مضامير الفعل بدلا من التراخي.

لم يعــد بالإمكان استعادة تلك اللذة الممعنة فــي الهرب إلى زوايا النسيــان، ولم يعد بالإمكان قطعًا الاستمتــاع بها. وذلك المرقب.. لقد حان الوقت لتغيير تلك التسمية.. فهو لم يعد الآن مرقبًا، يمكن تسميته بالمنطلَــق أو المستطلَع. فهو واثق بأنــه وراء كل تأمله، من هنا ستبعث فكرة وسيولد همّ. واستسلم مبتسمًا مقرًّا.. ولوّحت له أطياف السعادة الشاحبة بإغراء، ليتتبعها في أعماقه التي يتهيب خوض لجاتها..

كان الزمن لاهيا إلا عن تكريس ذاته، بالرغم من كل شيء.. وأحس أنه أصم أعمى فاقــد الإدراك، كرة صلدة مصمتة، تتدحرج بإصرار.. تتحرك من داخلها، دون أن تعي ما وراء ذلك.. تطأ من تطأ، وينجح في التشبــث بسطحها إلى حين من ينجح، ثم تلقي به إلى جانب من سبقوه وتسحقــه حتمًا، لا يستثنى من ذلك أحد.. قصارى ما يحدث أنه يترك علــى سطحها شيئًا من أثر، يصمد إلى أن يأتــي عشوائيًّا ما يطمسه.. جثــة مسحوقة كانــت، أو أثر متشبث عنيد آخر.. ولــم تكن الآثار تبقى قط، لكنها قد تعمر دورة أو دورتين أو دورات..

النور فقط هو ما لا تطوله تلك الكرة الثقيلة الغبية، فإذا ما سحقت الصــدور التي تحمله فرّ منها واختار أفقًــا قصيًّا، يتحدى منه بلادتها وسلبيتهــا ولامبالاتها. ثم انسكب في صدور أخرى تظل تحمله إلى أوان سحقهــا.. إنها أوعية النور التي ينمو، ويزدهــر فيها، وتحفظه ليتناقله

مَــن بعدها، فلا يقدر عليــه الزمن كما يقدر عليهــا.. مقيت، أم مهيب ومعجز وحكيم هو الزمن!!

رأسه يؤلمه.. يسعده.. يمنحه الإحساس بالحياة، برغم عناد حكم الزمن وحتميته. لم يكن يعلم قبل ذلك أن اللذة الحقيقية ألم واحتراق.. أن ولادة الشعــور تعني انبثاق الحياة من اتحــاد الألم والفرح.. وأرهقه ذلــك، كان جديدًا عليــه أن يصوغه، أن يدونه أو يغنيه، كما اعتاد أمام كل إحساســ يتخلله. شعر أن ما في صــدره الآن ينبغي أن يترجم عملاً لا غناء.

ورأى الدنيا كلها كتابًا منشورًا فوق ركبتيه، وهو على مقعده في ركنه الشامخ ذاك.. فراح يعبّ صحائفه.. يتملكها.. يحاكم ويطبّق ويُغني ما أثمرتــه أفذاذ العقــول. وكان يهتز ويترف ويُرهف، بمــا مرّت به فرائد القلــوب والأرواح من تجارب تثري الحياة وتسمــو بها.. وكابد فيه عناءً هــرب منه طويــلاً، ثم اكتشــف أن لا مهرب منه إلا إليــه، واتحادًا غير مباشر بروح النور الذي ماهاه ومازجه.

كان كثيــراً ما يرفع عينيه عن صحائفه، ليفاجأ بأن عليه أن يتركها جانبًــا، لينصرف إلى أمر ملح يستدعيه. وأرّقه السؤال، بل آلمه: لماذا لا يستطيــع أن يعيش كل شيء، وبالنسبة نفسهــا من العمق والفاعلية؟! إنه يحس أن لديه القدرة على ذلك.. لو أنه فعل هذه وهذا وهذا، لنجح وأبدع.. ولكن ثمة عوائــق غائمة متشابكة متداخلة، غير محددة، وغير مفهومــة، وغير مقنعة.. لِمَ هذا التنكيد؟ شــيء مؤرق مؤذٍ ألا يستوعب الأمر.

كان يتهرب من الاعتراف بأنه لا يمكن أن يمتلك القدرة على القيام بذلـك كله.. إنه لا يقرّ شبه الإجابة ذاك، إذ يبدو له أن ثمة عاملاً آخر غير القدرة، إنه ذلك الثقيل البليد غير المبالي «الزمن».

لمـاذا يتدخل الزمـن ويفرض نفسـه كعامل لازم، كلمـا همّ بفعل شيء؟ لمـاذا يحتاج إلى مساحـة معينة منه، يخصصهـا لهذا العمل، وذاك وذاك!؟.. وتضجر.. إن قيامه بكل ما يريد مستحيل؛ لأنه لا يمتلك من الزمن ما يسمح له به، أو لأنه لا يمتلك من القوة ما يمكنه من تجاوز طوق الزمن وتحدّيه.. هذا على ما بدا له يحتاج إلى قوة خارقة لم يزود بهـا.. إنّ عليـه إذا أراد جمع الأمور كلها أن يبـذل في محاولة الموازنة فيما بينها من الجهد ما لا يترك لأي منها ما يكفيه من قوته.

ولم يكن أمامه إلا أن يهرب من هذه الدوامة إلى صحائفه وأقلامه وتجاربـه وتطبيقاتـه؛ بحثًـا عن الترياق الـذي كان يجده فـي انشغاله الطويل بحمل نور الحق الأول إلى أصقاع الأرض.. إنه الآن يمارس ذلك العمـل في خدمة النـور، يستولده بتعميـد كل مظاهر الحيـاة والإبداع ببهائه وسره العظيم..

لـم يكن هنالك بدّ من أن ينتزعه أمر بين الحين والحين من غمار حياتـه الجديدة، على الرغم من كونه قـد مهد السبل للتفرغ لها.. لكن الحياة التي تتحرك باستمرار تولد المستجدات، ولا تكاد تعبأ بإصراره على الثبات في نقطة ما.

وأحسّ بأسف شديد إلى درجة الإيلام.. لو أتيح له التفرغ لما أراد لفعل وفعـل وفعل.. وسرعان مـا تدخل النقيض الحاضـر أبداً: لو فعل وفعل وفعل لكان وكان وكان، من جراء انصرافه عن الأمور الأخرى..

حالة البلبلــة المعذبة تـلـك صارت جزءًا ثابتًــا في وجـوده، وكـان لا بـد من تجاوزها بأي ثمن.. إنــه لا يستطيع الانكباب كما يرضيه على أي عمل وفي أي اتجاه.. فالمؤثرات والمتغيرات تتجاذبه، وتؤرق هدوءه الــلازم لأي إنجــاز كان.. كيف يبدع، وهو إذا مــا انصرف إلى الإبداع، وتوغل فيه إلى أقصاه هنا فلا بد أن أمورًا أخرى، وربما ذات أهمية لن تكون على ما يرام هناك؟

أرهقه تزاحــم المتغيرات، وأحبطه أنه لا بد أحيانًا من ترك ما هو أكثر أهمية من أجل ما هو أقل أهمية.. كان يغوص تارة في هذا البحر، وأخرى في بحر آخر، ويخرج في كل مرة موقر الشباك باللآلئ والكنوز المنسيــة في أعمــاق المياه الليلية، وينشرها تحــت الشمس، فتغنى بها وتغنيها.

كانــت الأمور تجري مــن حوله مكتفية منــه بالكلمــة أو الموقف أو الحركــة المســددة المجدية، وكانــت الأيام قد علمتــه شيئًا من مبادئ الموازنــة بين شؤون الفكــر وإبداعات الروح وإشراقــات القلب. وطاب لــه أن يرى نفسه بكل مــا يحمل من نور وعلم وفن، سيــد تلك الأصقاع وقائدهــا.. كان يعرف أن ثمة تحت الشمــس سادة آخرين، لهم ممالك شاسعــة، مسّ الكثير منها نوره، بل توغل فــي أعماق بعضها بما يحمله من خير عنوة تارة ورضًــا أخرى. ولأنه يحمل رسالة السماء الحقيقية، فقد كان ينعم بكونه الأفضل والأعلى.

لــم يكن هنالك بدّ مــع مرور السنيــن من بذل المزيــد من الجهد للحفــاظ على المكاسب التي أحرزها للنــور، وأحرزها النور له، فهو لم

ينسَ قط ما تعلمه من قبل: طبيعـة الكون تأبى الظلام والسواد، تسلبه دائمًـا ما تيسر مـن أسلحته، لكنها لا تقضي عليـه نهائيًّا لتكرس توهج النـور، ولتنقـي أبناءه وتوقظ فيهـم عشقه، كلما خفـت إحساسهم به، وشغلتهم عن حمايته شؤونهم وشجونهم.

شيئًـا فشيئًا، وكمـا يحدث دائمًا وفي كل مـكان، وتحت أي ظروف كانت، راحـت تتأجج وتتكاثر الأسباب التي تنتزعه من مملكة الإبداع.. كأنمـا قد انقضى زمانها.. يا للزمن! ويا لتلك الغيوم التي لا تني تنتشر في أفقه الضاحي الشفـاف! وداهمته قشعريرة كتلك التي تجلبها أولى رياح الخريف، فانكمش ساهمًـا، كأنه يشيّع أليفًا يمضي ملوحًا ويذوب في الأفق البعيد.

لقـد حلم كثيرًا بهبوب تلـك الرياح الصديقة التـي اعتادها، تلذذ طويـلاً بتخيلها تشتت الغيـوم، وتعيد إلى الأفق رونقـه وصفاءه.. ولكن الريـاح الصديقة لم تعد تزور إلا غبّـاً، حتى عندما تفعل، فهي لا تطيل المكث، ولا تكاد تغنيه عن كثير من الجهد والوقت اللذين ينبغي بذلهما لإعادة الأمور إلى نُصُبها.

كانت أيام الإبداع والغوص في أعماق الفعالية، ولذة استفراغ نبض العقل والقلب تتوغل شيئًا فشيئًا في عالم الذكريات فالأماني، مما جعله فريسة لكآبة ليست بالجديدة، راحت تعشش في زواياه القصية.

وأرهقه الضيق والعذاب، فبقدر حرصه على عالم النور الذي يعشق، كان تمسكـه بعالمه البديع الثمين، وقد استحال عليه الجمع بينهما كما يرضيـه، فاستبد به التمزق المثبط، وجثم فوق صدره، مغتصبًا لنفسه

مكانًــا بينهما، ثم راح يتمدد، مزيحًا هذا تــارة وذاك أخرى، حتى ران على قلبه، فلم يعد يجد طعم أي منهما صرفًا. وكان يعرف ذلك الطعم الجديد الحارق المجهض، لكنه الآن، وبعد أن شهد النور والإبداع يبدو سمًّا زعافًا يسري في روحه وجسده وتحت سمعه وبصره..

وألفى نفســه يسبح مسلوب الإرادة في بــرزخ بلا ماهية ولا حدود، وبــدا له أن كل شيء مما كان فــي متناوله يتسرب من بين أصابعه، وأن يديه عاجزتان عن القبض على أي شيء.. أو أن الأشياء هي التي تنفلت من قبضته وتستعصي على المكث بين يديه..

النــور..! وتلمّسه جزعًا.. إنه ما يحتاج إليه لإصلاح كل شيء.. ولم يكــن النور ضنينًا ولا محتجبًا، كان يحبــه ويألفه، كان يقف على أبواب قلبــه، منتظرًا فرجة لاقتحامه، وكثيرًا ما فعــل، فكانت تعود إلى القلب إشراقتــه، وإلى العين صفاؤها، وإلى اليد قوتهــا.. لكن الرياح الغريبة الهــوج كانــت تصفق تلــك الأبــواب، وتشرعهــا إلى الضبــاب والتمزق والعجــز، فلا يرى وراءهــا إلا أطباق غيم كثيف يتصــدى لنور الشمس التي يحلم بها..

كانــت عيناه فيما مضى تبرقان بأشعة تخترق تلك الغيوم وتبددها، وتخلص إلى النــور، فتفتح له الطريق؛ ليغمر القلــب والأرض.. لكنهما الآن متخاذلتان خرقاوان، تــكاد تخدعهما البروق الخلبية التي تدفعها هــوج الريــاح إلى سمائــه، فلا تــكادان تفرقــان بينها وبين نــور الحق الأزلي.. النور الــذي ماهاه طويلاً، حتى صار قلبه منطلقًا لخيوطه إلى كل الأصقاع..

كان البريــق الجديد فاتن الالتماع، لكنــه كان قصير الخيوط، فلم ينفذ إلى أقاصيه قـط.. لقد بهره، استلب عينيه، مدّ له حبائل الإغراء بخبـث ومكر، فتـح كفه في غفلة منــه، وسكب فيها قطـرات من سائل عسلـي لـزج كالقطـران، لكنه جـارح الحلاوة، أغـراه، فـراح يلعقه.. واستبـد به الهيام.. بسط كفـه أمام وجهه وراح يدمــن اللعق.. وكانت كفه المبسوطة تحجب كل شيء.

كان يسكـر.. كان يهرب من ألمه وعذابـه وضعفه، تجلده ذكريات النــور والمجـد والسلطـان، وقهـره الرغبـات المعربـدة، والخطـوات المتمــردة باتجاه البهـرج والخـداع والسائل العسلي الجـارح اللعين.. ولم يقوَ على التضحية بـأي منهما.. وكان غروره لا ينفك يغريه بإعادة محاولــة الجمع بينهما، كما صور له اندفاعــه واحتدامه من قبل أن في مكنته القيام بكل شيء لولا.. الزمن.

وكانت تصوراته تلك ترضيه أحيانًا، فيدوس بحماقة ذلك الهاجس المتواتر.. ستفقدهما معًا.. ويتساءل مستنكرًا: ولِمَ لا أحرزهما معًا؟.. بغض النظر عن كون الظلام والنور لا يجتمعان!!

وذات مرة هدته رغبته العمياء إلى ضالته.. إنهما يجتمعان.. أليس هناك الغسق والغروب؟!

آه.. هــا هو ذا أخيرًا أمــر جدير بالبحث.. ألا يمكن أن تدوم هاتان الفترتان؟ ألا يمكن أن يكون المخاض حالة مستمرة؟..

وخمدت الفرحة الخديجــة.. لكنها ستكون عذابًا متصلاً.. ستكون شيئًا خارجًا عن قوانين الوجود التي تحكمه فيما تحكم، وقد قضت تلك القوانين أن المخاض مرحلة مؤقتة، ممهدة للميلاد.

كان في نقطة ما من أعماقه يشعر أن ما يفكر فيه سفسطة لا طائل وراءها، لكن عناده كان يتغلب على شعوره ذاك.. لم يعد ثمة شيء صافٍ في كيانه، لم يعد ثمة شيء قوي. وروعته هذه الحقيقة، لكن ارتياعه كان مثله أضعف من أن يبلغ مبلغ الزلزال اللازم لإنقاذه..

الحقيقة الوحيدة الساطعة كانت تسرب المزيد من الرياح إلى مملكته.. عواصف هناك راحت تجتاحه هنا، وكانت من القوة وكان من الضعف، بحيث راح يفقد الكثير من ركائز تفكيره لدى كل واحدة من ثوراتها العاتية. ولم يعد يقوى حتى على الاستنجاد بالنور، على الرغم من يقينه أن العودة إليه هي المنقذ الوحيد..

يقينه ذاك كان معلقًا في الفضاء، كان يحتاج إلى يد تمسك به، تعيده إلى أعماق القلب.. وكان القلب هواء.. زلزلته الرياح العاتية، فشتت النور، وها هي ذي تعصف بأوراقه وأقلامه وثمرات إبداعه الملهم المضيء، تذرو كيانه الروحي المجسد علمًا وفنًّا، فيتمزق على حراب الصخور وأشواك الجذوع وتتطاير أشلاؤه معفرة بالرمال حتى تثقلها وتدفنها، أو تحملها فيما تحمل من كنوز إلى البعيد البعيد؛ لتكون لغيره.

ألفى نفسه ضائعًا، سلاحه بيده ويده شلاء ورأسه أشل، والحراب تتقدم منه مشرعة من كل اتجاه.. عندما كان فيما مضى يحمل لواء النور، كان يسمي ذلك ظلامًا، أما اليوم، حيث لا لواء له، فهو العدو.. وإنه ليعرفه، ويعرف ما ينتظره منه، إنه ما ينتظره وريث النور من وريث الظلام.. ما أشد دهشته الغبية!.. لِمَ كل هذا العداء؟! هل كان ذنبًا أنه حمل النور والهدى إلى الدنيا؟!.. من ذا الذي يكره النور؟!

وطحنتـه حسرة طواها دهشه من السؤال: لماذا يكرهون النور؟! لماذا لا يعتنقونـه؟! هل كان سيـدًا سيئًا إلى هذا الحد، حتى تنقلب عليه هذه الرياح الهوج العاتية بكل تلك الوحشية؟! حتى هذا السؤال يدرك أنه ليس في مكانه، إنه واعٍ لما يجري، والوعي المحاصر بالضعف والشلل عذاب لا يحتمل، عـذابٌ يهون معه وأده، وتغليق الأبواب من دونه، والهرب من سياطه إلى أي زاوية، مهما كانت قصية ومجحفة وضنينة.

يـا للكواكب والنجـوم عندما تتزاحـم وتتدافع وتتفانـى، وتخرّ في غمضة عين إلى العدم، تاركة الظلام وحده.. ولا شيء غير الظلام..!

لم يفقـه تمامًا كيف تراكمت كل تلك الجـراح فوق أديم جيده بكل آلامهـا، وما تورثه إياه من عجز وركون وخمول.. وكلما تفرس، في غفلة مـن عذاباته ومثبطاته، في جرح يتلمس ما قد يوقف سياطه وصراخه، انهالـت عليـه الجراحـات تتشاكـى، فضاع، وترنـح تحت وطـأة ألم لا يطيق عليه صبرًا، وهـرع مرعوبًا إلى ردم ذلك الجرح بضماده القديم العفن..

استهـواه البكاء.. وجـد فيه الشيء الوحيد الـذي يستطيع فعله في حالـة العجز والشلل والاستهـداف، ونزيف الجراح الجديدة الذي يملأ حفـر الجـراح القديمة الشوهاء النتنة.. أخيـرًا، كان لا بد أن تلي ذلك مرحلـة التفكير فيما ينبغـي عمله، في سلاح يدفع به أولاً غائلة الجراح التي لا تنفك تتزايد بلا مبرر، وبشكل لم يعهده أو يفهمه..

تخيـل، في بحثـه المحموم عما يمكن أن يعيـد إليه شيئًا من مجده القديـم أن اليد التـي لم تعد تقوى على العمل، لـن تعجزها العودة إلى

القلـم، فهـو أخف ثقـلاً، وأسهـل حملاً وأكثـر طواعيـة.. وسرعان ما اكتشف أنه كان في أبعد نقطة من الحقيقة. لقد خذله القلم كما خذله الرجاء المجاني من قبل، بل إنه زاد على ذلك، فصفعه بحقيقة لم يكن قد تمثلهـا تمامًا. فلئن كان القلم لا يحتاج إلى قوة الساعد، فهو يحتاج إلـى قوة تنبـع من ذلك الشـيء العظيم الذي كان فـي داخله.. وفقده. وهكذا زاد القلم عدد الجراح، ولم يداوِها، أو يسلِه عنها.

ومن موقعه المقهور كان يـرى.. يرى فقط، وبانعزال كامل.. بينما يتكاثـف الضبـاب، وتتزاحم المرئيات، وتضج وتصخـب وتتلوى، آخذًا بعضها برقاب بعض، حتى تضيع معالمها، ويداهمه الصداع، فلا يقوى علـى متابعتها. ويغمض عينيه الكليلتين، فلا يفتحهمـا عجزًا أو يأسًا، حتـى عندما تأخذ المرئيات والحقائق في نهش أطرافه، وتمزيق إهابه ونـكء جراحه.. لقـد كان فتحهما مأسـاة قائمة برأسهـا، تضاف إلى مآسيه..

صـارت الخسـارة خبزه اليومـي.. فكأنما كان ثمـة قاعدة لا تحيد عنهـا الأحداث التي تجري من حوله، اتجـاه إلى النيل منه وتحطيمه.. كيف تتفق كل الظروف والأطراف لتكيل له اللكمات؟!

كان تـارة يفسر مـا يجري بكونـه اللقمة الأسهل منـالاً، لكن ذلك التفسيـر لم يبرر لـه كمية الحقد التي يواجهه بهـا كل ما حوله.. إنه لا يستطيـع، مـن موقعه العاجز أن يـرى بوضوح ما يحـرك الأحداث من خيوط، قد تقوده إلـى إدراك كنه ذلك الاستهداف الحقود، ومن يتولى كبره.

آه.. إنــه يتلمس بأصابعه الكليلة، كأعمــى ليس له من وسيلة إلاها، ملامــح يعرفها.. الظــلام؟! الظلام من جديد.. أفــكاره تأخذ طريقها إلــى الترتيب، لا إلى الولادة، فهي لم تمت قــط.. فليتحرَّ الظلام، فإنه المفتاح..

آخــر عهده به، بل ببقاياه تتآكل في الفلــوات الشمالية.. لقد اجتاز فــي حمله للنور تلــك الفلوات، وما تلاهــا من جبال وتخــوم، فلم تعكر أفــق رؤيته تلك البقايــا ولم يقف لها على أثر.. فهــل ابتلعتها الرمال؟! علــى نحــو مــا كان موقنًا أنه لا بد مــن وجود شيء منها هنــا أو هناك، فهو يعرف طبيعــة النمو والامتداد الفطوري في شظايا الظلام ومزقه. ولا يــزال يذكــر كيــف يراها من مرقبــه منذ قرون تتجــاذب وتتلاصق وتتداعى، متسترة بمشاعــل كاذبة، تخفف من وطأة حلكتها، ثم تسري ملتهمة المسافات بصمت، وتستوطن متطامنة منابت النخيل في أرض النــور، من قبل أن يولــد.. ولا شك في أنها ستعاود الكرة ذات يوم، وفي مكان آخر.

وتلفــت، كمن يبحــث فيما حوله عن شــيء يكاد يوقن أنــه، وإن لم تلتقطه عيناه، ليس ببعيد. وتذكر - في استسلام قانط - ما بذله النور، لاجتثــات ملاءات الظــلام الصفيقة من صدر تلــك الأرض، وتشتيتها، لإتاحــة الفرصة للضيــاء، حتى يغمر الدنيا كلها.. لــم يجد في الصدر متسعًــا لحــزن جديد، لذلك لــم يتساءل ولم يتحسر، علــى أن النور لم يمحُ الظلام تمامًا. وغامت فــي باصرته وبصيرته فكرة أزلية الصراع بينهمــا، لأنه لم يكن يملــك أي ركيزة للتفكير فيها، وكان الصراع يعني له جراحًا فوق جراح..

وحدهـم، من امتلكـوا سفنًا عبرت التاريخ الحقيقـي، أدركوا عمق المأسـاة التي يعيش، وحدهم أحسوا ذلك الوجـع الفريد، الذي تسببه رؤية الشموخ العزيز يداس، والنبل الحقيقي يلوث ويدنّس..

كان التاريخ، الذي كُرس بتسلط ووقاحة، كاذبًا ومزورًا ولصاً، كان كل ما فيه مزيفًا، حتى اسمه. أما التاريخ الحقيقي فقد ابتلعه الظلام، وثبت أقفالاً محكمة على الأفواه القليلة التي يمكن أن تفصح عنه..

وفـي ثورة نزق وغـرور ألقى الظـلام أقنعته.. نعـب منتفشًا، وبدا واضحًـا أنه قـد أعد العدة بإحـكام؛ ليوجه ضربتـه القاصمة إلى قلب النـور.. غرز سهمه الأسـود الحاقد هناك، وحـطّ بقديمه الملطختين بالفساد والضلال فـي مرماه.. في الأرض التي لم تزل تجد طعم دماء الذين سقطت أجسادهم عندما طردوه منها مذؤومًا مدحورًا..

وألقـى ببصره إلى هناك.. أحس أن قلبه هو الذي طعن.. وكان قد نسـي كيـف يغزو الحزن القلب، فهـو مقيم فيه، يتخذ أزيـاء من التبلد والتقوقـع والتحجر والتسمم البطيء المميـت.. لا يصح أن يسمي تلك الطعنة قاتلة، فهو مقتول منذ زمن لم يعد يذكر بداياته.

راح يصرخ ويجمع قبضتيه؛ ليكيل اللكمات للقار البغيض المتمطي بصلبه وأعجازه وكلكله فوق صدره، وسرعان ما دميت تانك القبضتان، وأثخنتـا بالجراح، وتهدلتـا عاجزتين منهارتين، بيـن طعنات الظلام القاتلة، وتخاذل سائر الجسد عن نصرتهما، ضعفًا أو جبنًا أو خيانة.

كان اكتشافـه الظلام، من جديـد، جديرًا بـأن يستدعي انتفاضة تغيـر الواقـع المرير، لكن الشلـل لم يسمح بأكثر مـن رعشة في أصول

الجذور، عميقــة ومأساوية، فجرت الدماء من زمِنات الجراح في دفقة هائلــة، أرضت حقد الظلام، وأحكمــت قبضته على الجسد الأشل، مما مهد السبيل إلى القلب الذي بات مباحًا..

مــع ذلــك لا يمكن القــول: إنه قد مــات، فقد كان علــى الرغم من استباحــة وجراح قلبه حيًّا.. بمعنى ما، كان حيًّــا، فهو أشل متهالك، لا يقوى على الانتصاب، لا يقوى على التحرك في ضجعته، لا تطاوعه يداه ولا عينــاه.. لا يطاوعه إلا قلبه الأشوه الأبتــر، الذي بدا غريب الإصرار على مواصلة النبض.

وكانــت ثمــة خلايــا حية حــرة، مكنونة لا تــكاد تــرى، لكنها كانت مصدر غمّ للمنتصر الجبان، فهي لم تخفَ عليه، ولم يعمَ عنها حرصه المتكالــب، وإن لم يستطع الإمســاك بأي منها. كانت كأضواء تلتمع من بعيــد، كالنجوم تــرى، لكنها لا تدرك. لأن النور يرى مــن أبعاد شاسعة يتعــذر تقديرها.. يحدق إليك متحديًا، وتحدق إليه عاجزًا، ولا يبلغ بك الأمر أن تفكر في الاتجاه إليه...

هو أيضًــا كان يرى ذلك النور.. لم تعمَ عيناه قط، حتى في أقصى أغــوار الظلام ومجاهله، كان يــراه.. ولكنه لم يعد يدرك معناه.. عيناه ليستا بعاجزتين، لكن قلبه وعقله عاجزان.. ومصاريعهما المغلقة على عفن طعنات الظلام لا مفاتيح لها، ولا قوة لديه لفتحها عنوة...

مــا أمض الألم عندمــا يهتصرك الداء، ويكون الــدواء بين يديك، لكنك لسبب ما، لا تفتح فمك لتناوله! هذا السبب الخفي القاهر هو ما يعجزه.. وهو ما ينبغي القضاء عليه، لكنه يجب أن يتعرفه أولاً.

جسـده الهائـل المسجـى علـى امتداد تلـك الأصقاع بـلا حراك، الراسـف في قيود من كل لون ونوع، المشدود إلى الأرض بأثقال تعجزه وتضنيه، يقاوم باستمرار فكرة العجز عن التخلص منها، ذلك الجسد المهيـب الفريد، يثير فيه أحاسيس شتى متضاربة: الإحباط، العزيمة، الانكسار، الثـورة، اليأس، الأمل، الخجل، الاعتزاز.. ما أشد عند ذلك الجسد! بل ما أشد صراحة الواقع وفصاحته!

كل مـا يعرفه عن نفسه، كل الحقائق المتوارية في أعماق الذاكرة، كل مـا هـو قابـع بصمـت وراء الإحبـاط والانكسـار واليأسـ والخجل هـو عـزاؤه. وانتابه خوف مفاجـئ.. كيف ترك له زبانيـة الظلام هذه الحقائق؟! كيف سلمت مـن أيديهم، وبقيت فيه حية، وقد استماتوا في محوها وتزويرها وطمسها؟!

أحسّ بصحوة وانتعاش، وراح يرمق في روحه يجلو باندفاع وشغف تلـك الحقائق الثمينة واحـدة إثر أخرى، ويدفع إلـى الخارج بكل بقايا القـوة التـي ما زالـت عالقة فـي جـدران وجدانـه الخـاوي.. أصابعه المتموتـة المطمورة في التـراب، وجدت شيئًا من العافيـة ينسكب في مفاصلها المتصلبة، ارتعشت في حفرها، استجمعت كل حشاشة الروح المحتضـرة، وتحركت.. تشقـق التراب المرصوص منـذ عقود كثيرة، وبـرزت، كالشهـاب الثاقب، الأصابـع الرمادية المتصلبـة، واستقبلت الشمسـ، وكأنهـا كانـت في انتظارهـا، فألقـت فيها روحًـا تمشت في الأوصال، وتمركزت في القلب.

ثمـة حياة.. النبض الذي كان مخنوقًـا تحت ضغط قبضة حديدية يتنفسـ.. يحشرج.. ينتفضـ بقوة داخلية جبارة. يـا للعجب! إنه نبض

حقيقي.. تدفق فجأة، ضجّ كما لم يكن يتوقع.. ما أعظم تلك القدرة التي يمتلكها هذا الجسد الأصيل الجميل على الحياة!

أذهلت المفاجأة أولئك الذين أنفقوا، وما زالوا ينفقون كل ما يملكون لإفناء ذلك الجسد، تراخت قبضاتهم الغاشمة، تجمدت مداهم الحاقدة، تثلمت فؤوسهم التي يحفرون بها الأرض بدأب حول ضحيتهم لتغرق في التراب.

وسطع نبض القلب.. سمعه الكثيرون ممن لم يكونوا يسمعون إلا نعيق الظلام في أبواقه. برعم، على الصفحات، وعبر الآذان، شعاع من الحقيقة المطمورة في رمال وسط العالم وقلبه. أدرك كثيرون من أقاصي الدنيا أن في هذه الرمال، التي تتوسط العالم، حقيقة منيرة، تقف جيوش الظلام برمتها في مواجهتها؛ لإطفائها وطمس معالمها.

وثار ذعر الظلام، انفلت كعاصفة وجدت فرجة في جبال شاهقة، فاندفعت بقوة الضغط والاحتباس.. اندفع أهوج أرعن مستميتًا، فدمر كل ما مرّ به.. استعاد الصوت من الآذان، وكلام الصحائف من العيون.. كان في مواجهة واقع يقتضي تجنيد قواه كلها.. فلكي تقضي على الحقائق، لا يكفي أن تطمسها وتشوهها، بل ينبغي أن تذبحها في مهدها.. الحقيقة لا تموت إلا حيث ولدت، وما دامت حية في أرضها، فإنها سرعان ما تستعيد قواها، وتجتاح كل الفضاءات التي طردتها منها.

هكذا تجمعت كل أسلحة الحاقدين، ولم يكن هناك ما يمنعهم من التحلق حول ضحيتهم الهائلة، وإغماد نصائحهم بوحشية في جسدها

العاجز، لاستئصال ذلك الداء من جذوره. انتزعوا كل ما عثروا عليه من حقائـق، جمعوها في حاويات كتيمة كبيـرة، ونقلوها إلى أبعد المنافي، مرروا فوقهـا قطاراتهم، حملوهـا بطائراتهم، وألقوا بهـا في متاهات الصحـارى، وسلطوا عليهـا نيران أسلحتهـم كلها، ثم حملـوا بقاياها المتفحمة، وألقوا بها في أعمق نقطة من أكبر محيطات العالم.

ثـم صنعوا بدائـل أطلقوا عليها اسـم «الحقائق» ملـؤوا بها الآذان والعيـون، حقنوها في الأماكن الفارغة مـن ضحيتهم العتيدة، وخاطوا أفـواه الجراح، وردموا مهاوي الحفـر، وهم يغطون وجوه جرائمهم بكل ما تتفتق عنه قرائحهم من ألـوان الأقنعة: معالجة المرض، استئصال الجهل، القضاء على الجوع، إعمار الأرض.

وكانـت الأقنعـة متقنة، وكان هـو مشوش الفكر، حتـى كاد يصدق مـا يدعـون.. بل إنه صدق ذلك فعلاً، فهـو الآن، على الأقل، لا يستطيع الحـراك، وإن كان يتحرك فقط، في مسـارات مرسومة، لا يملك عنها محيدًا. وهو يستطيع الرؤية، وإن كان لا يرى إلا من خلال المنظار الذي تكرمـوا به عليه، بوصفه صديقًا ناميًا. والأهم من ذلك كله أنه يستمتع بتلك المباهـج الصغيرة، التي تضفي على الحيـاة ألوانًا براقة، وتدلل الرغبـات، وتمنح النفـس متعة، هي من أبجديات حقـوق الإنسان! وقد كان محرومًا منها طوال عصور ما قبل الذبح المظلمة.

وفـي تطور محتوم صار يملـك أن يحرك رأسه ويديه، تم ذلك على الرغـم منهـم، فهو ما يزال فـي مرحلة النقاهة مـن عملية زرع الزيف والزور، ولا بد من السماح للجسد بالتقوي؛ ليتجذر زرعهم ويثبت، وهذا يستلـزم التغاضـي -ولو مؤقتاً- عن تلك الخلايـا الهاربة من المباضع

البارعـة، عن ظـلال الحقائـق التـي تبتلعها ميـاه المحيطـات ورمال الصحارى القصية.

لـم يشعر هـو بذلك، كما كانـوا يشعـرون.. فالحقيقـة أنهم كانوا متفرغيـن لشؤونه؛ لأن استقرار كيانهـم ونجاح مخططاتهم، مرهونان بمحـو آثار تلك الحقائـق مهما ضؤلت. أما هو، فقـد استغرقته مباهج النفسـ الـذي منّوا به عليه، بعد دهر من الاختنـاق، وطفت وطغت آثار عقاقيرهم وجراحاتهم، وحقائقهم التي ابتدعوها، على أي خلية أصيلة منسيـة، تتـوارى في زاوية من الجسـد المشوه الممسـوخ، حتى عندما كانـت تحاول أن تتنفس في غفلة من أعيـن جند الظلام، كان يتصدى لها؛ حذر مخاطرها علـى مكتسباته، التي يعض عليها بالنواجذ، والتي أخرجتـه مـن حالة المجاهـدة في سبيل الرمـق، إلى الحيـاة ببريقها وحلاوتهـا، بالإضافـة إلى ما تعـد به من الحلم بالوصـول إلى مصاف العليـة، المختلفيـن في كل شـيء.. الذين لا حقّ ولا جمـال ولا خير إلا حقهـم وجمالهم وخيرهم، ولا مجد إلا مجدهم، منذ أن كانت البشرية إلى يوم الدين..

هكـذا امتلك هو الآخر مدية كمداهم، يستخدمها بالطريقة نفسها التـي يستخدمونها بهـا، بل إنها لتسفر أحيانًا عـن نتائج أكثر نجاحًا.. لأنه أخبر منهم بمقاتلته!

* * *

إلـى موضع ما، في تاريـخ ما، تقاطر، من أكنـة لا أسميها لدواعي السلامة والأمن، نفر مـن أولئك القلة الأحياء، الذين خلفتهم العصور

والأحداث.. إنهم بشر مختلفون.. لهم صدور هائلة الاتساع، وقلوب باهرة النقاء، وعقول معجزة الصفاء. يحملون شعارًا واحدًا، هو الإيمان والقصد، وتجمعهم لغة واحدة، هي العمل والتفاني، ويتداولون عملة واحدة، هي العرق، وتنتظمهم صفة واحدة، هي المنعة من الزيف، ويسعون إلى هدف واحد، هو بعث الحقيقة..

كانوا أمهات وعلماء وفنانين.. وعلى الرغم من المبالغة في السرية والحذر، فقد نما إلى الظلام خبرهم. ولما لم يستطع بعد كشفهم بأعيانهم، ونظرًا إلى خطورتهم البالغة على جهود مئات السنين في التصدي لما يمثلون من قيم، ومن قبيل الاحتياط للأمر، والأخذ بالأسباب، وكإجراء وقائي لا بد منه، فقد قرر الظلام وأصدقاؤه وأتباعه وأعوانه ومناصروه، بالإجماع، محاربة كل أم، وكل عالم، وكل فنان، يتوافر فيه أي من الصفات الآتية: النقاء، والإيمان، والقصد، والموهبة الحقيقية، ومزية المثابرة والدأب، واعتماد الجهد والجد والعرق منهجًا للعمل. كل بحسب موقعه ووضعه وقوة تأثيره في محيطه.

ولم يغفل الظلام وقبيله كذلك عن حقيقة معجزة، لا يملكون حيالها إلا الوقوف عاجزين، إنها قدرة هذه القلة المؤمنة العاملة على تخطيهم، واجتياز كل كمائنهم المموهة، وحرابهم الصريحة المشهرة؛ لأنهم يعتصمون بالنور، الذي لا تفلح كل أسلحة الظلام مهما عظمت في التصدي لشعاع واحد منه مهما ضؤل.

ولذلك فهم اليوم بصدد اختراع نورهم العصري الحضاري الجديد، الأكثر بريقًا والأكثر جاذبية. وقد أطلقوا عليه أسماء مغرية من

قبيل الإنسانية والعالمية والانفتاح والشمولية والديمقراطية بين الأمم! كبديل مــن النور الذي يعتصم به هؤلاء المؤمنــون الأنقياء المثابرون، الخطرون على الأمن العالمي..

فإلى كل من ينتمي، أو ينتسب، بشكل ما، إلى هذا الكيان المنكوب، أو يهمــه أمر الحقيقــة في هذا العالم: لئن لم نكن مــن هؤلاء الأفذاذ، الذيــن يستهدفون بعث الحقيقة، فإن من واجبنــا أن نحميهم، ونقاوم مخططــات الظــلام لمحاربتهم أو محوهــم أو تهميشهــم. ولننتبه إلى المُــدى المجرمة المزروعة فــي هذا الكيان، فهي ألغام قاتلة، قد تكون أخطر من أسلحة الظلام التي ماتزال في يده...



ما وراء الخندق

الليل يجثم بليدًا بــاردًا، موصول العصف، مزمجر الرعد، وسياط البــرق النارية تجلــد التلال المقرورة الراجفة بقســوة.. ومدينة رسول اللّه ﷺ قد أغلقت مداخلها، وتحصنت خلف خندق، يتيح لرماتها النيل بالنبــل من جموع قريشــ وغطفان ومسانديهــم، المتربصين بالمدينة منذ أسابيع.

كانت ليالي الحصار الطويلة تلك تذكر المسلمين ليالي الحصار في مكة، حينما ضرب الباطل أسواره الصفيقة الغاشمة على القلة المؤمنة المحاصرة في شعب أبي طالب، وتحيي على الألسنة وفي الذاكرة طعم رمال الشعب وجذوره، ومــرارة ظلم ذوي القربى، فكأن الأمس قد بعث اليوم بملامح أقسى وقبضة أشد.

ها هــم أولاء أعــداء الأمس تحشدهــم مكايد يهــود، تجرهم عبر الصحــارى مــن كل حــدب وصــوب؛ ليضربــوا علــى المدينــة المؤمنة حصارهم الحاقد، ويمنعوا عنها أسباب الحياة، ملوحين بالموت تحت قبضة القوة الغاشمة، أو في براثن الجوع والبرد.

وفــي معسكــر الإيمان المتصدي عند ذيول سلــع، راح حذيفة ينفخ فــي راحتيه المثلجتين، ويضــمّ إليه أطــراف إزاره الصفيق.. أحس أن هذا المرط يخذله، فهو لم يغنِ عنه شيئًا أمام الريح المتسربة من بين الجموع، ومن خلل السرادق، والتي تكاد تنفذ إلى عظامه.

تحسس الإزار مستعطفًا، مسترجعًا صورة زوجته، وهي تشيعه حتى البــاب، ثم تنزع ذلك الإزار عن جسدهــا النحيل؛ لتلقي به على كتفيه: خذه يا حذيفة.. البرد شديد.

وأنتِ!

ســآوي بالفتية إلــى حصن ابن ثابت، مع عمة رســول الله ﷺ، أما أنتم ففي العراء.

ثمة خيام.

لا تمنع من رياح الليل.. خذه يا حذيفة.

وعاد يجمع إليه أذياله بحرص، ويخفي قدميه الراجفتين في ثنيتي ركبتيــه، ثم دفن أنفــه المثلج في راحتــه، ورفع بصره إلــى سفح سلع، يستجديه الحماية من هذا العاصف الذي لم يعِ له مثيلاً طيلة حياته.

ضوء الســراج النحيل يتراقص من بعيــد، فتنجلي المرئيات تارة، وتغوصــ فــي الظلام أخــرى، والنبي ﷺ مــا انفك منذ صــلاة العشاء منتصبًــا مستقبلاً مكة.. همســ حذيفة لنفسه: مــازال يصلي! وكانت أشباح الرجال بين مصلٍّ وجاثٍ ومضطجع وجالس، تتواثب على جدران السرادق متلوية مع عبث الريحٍ المتواصل، فقد كانوا يتراصون التماسًا للدفء والأنس، في تلك الليلة الليلاء.

لــم تطب نفســ حذيفة بالعتــب على الريــح، فقد أحســ أنه مدين لها.. وانتابه خشوع دفــع بالدمع إلى عينيه، وراح يتمتم: أيتها الرياح.. يــا رسول رب السمــاوات والأرض.. إنها لمعجزة مــا تصنعينه هناك.. وطفقت مخيلته تستعرض الصور التي سمح بها غروب الأمس..

الخيـام المتخافقة تنازع أوتادها نزاع خصمين يتفانيان، والأخرى المتطايـرة تجرجر الأمتعـة، وتكفأ الأوعية والقـدور، وتعرقل الخطا.. والناس تموج في الركائب والمتاع، فيطأ بعضهم بعضًا.. وشآبيب الرمل تفرغهـا الرياح الهوج على المعسكر، فيخيـل إلى الناظر أنها ستغرقه، وألسنـة النيران المعدة للطبخ والإنـارة والتدفئة تعربد بجنون، فتحمل الرجال على إخمادها بأيديهم؛ خشية أن تلتهم المعسكر بمن فيه..

لا بد أن يطبخوا.. أن يشربوا.. أن يتدفؤوا.. كل هذا توفره لنا بيوتنا التـي نحتجزها وراءنا، أما هـم فعراة عزل بين مخالـب الريح والبرد والليل.. يا جبار، يا قهار.. راح يرددها في ابتهال ضارع، فيواري بذلك النداء القلبي الصافي دمعًا يجيش، ثم يفيض رهبة وخشوعًا..

كيـف تنقلـب الآيـة؟! لقد تألبـوا علينا، وجمعـوا لنا كل مـا طالته أيديهـم من قوة غاشمة، بتدبير يهود وكيدها وحقدها، ونال منا الجوع والخوف، وأرهقنا الترقـب الطويل، حتى كاد يحمل اليأس إلى قلوبنا.. وهـا هم أولاء في قبضة جبـار السماوات والأرض، قشة في خضم سيل عـرم، يدمر الخلاف عزائمهم، ويحبط سخط الله ما أعدوا من مكايد وخطط..

بـوارق السماء تحيل الليل نهارًا، فـي ومضات كالسياط المنهمرة، يتبعها هزيم رعـد عنيف يصم الآذان، ويحبـس الأنفاس، ويزيد الليل وحشة ورهبة.. والريح تـركل غضبى أمشاج الخيام والمتاع المبعثرة.. ولم يستطع حذيفة اقتناص غفوة، فراح يمضغ الإرهاق صامتًا متضررًا.. وكان النعاس مع البرد والتعب والجوع والخوف عذابًا لا يطاق..

ها هو ذا النبي ﷺ يخرج من صلاته الطويلة.. ينتصب كالرمح بين الرجال المقرورين الجائعين، المرهقين من طول الترقب والانتظار، ويجول بعينيه في الناس.. فجأة امّحى كل شيء، لم يعد في الوجدان إلا الحرص على التقاط كلمات النبي ﷺ التي يهمّ بقولها.. فقال النبي ﷺ: من رجل يقوم، فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع؟

.. يرجع!! من يضمن أن يرجع؟!

كل الرجال كانوا يهمسون بتلك العبارة.. لكن الجوع والبرد والليل سمّرهم، فلم يقو على النهوض منهم أحد.

شيء في داخله يتمرد على الجوع والبرد.. إنهما لا يعنيانه.. كل ما يعنيه الآن أن ينهض مجيبًا النبي ﷺ قبل غيره.. وكانت الكلمة الفصل التي لا يعني معها الخوف والجوع والبرد شيئًا، الكلمة التي تقترن بالفعل، والأمر الذي يعني الاستجابة: «يا حذيفة.. اذهب، فادخل في القوم، فانظر ما يصنعون» . قالها النبي ﷺ وسمعها حذيفة.

هكذا حذيفة حطم القيد الذي كبل الرجال كلهم، فأمر النبي ﷺ حكم مبرم فوري التنفيذ.. ودعا له النبي ﷺ أن يحميه الله ويحفظه، فكان ذلك عدته وعتاده.

أواقع هذا يا حذيفة! كيف نهضت خفيفًا طائرًا، وقد كنت مشدودًا إلى الأرض كجبل، متخشب الساقين، متجمد الأطراف؟! ولم يعد في ساحة شعوره إلا كيفية قطع المسافة الفاصلة بين المعسكرين.. من أين سيلتف؟.. من أي نقطة في الخندق سيعبر؟.. كيف سيزحف؟.. أي الاتجاهات أكثر أمنًا؟

وانتبه، فإذا هو منتصب، مرخٍ ذراعيه، مطلق العنان لفكره، يبتدع المخارج ويرسم الخطط ويبتكر الحلول. فكأنما هو رجل آخر، غير ذاك الذي كان قبل دقيقة واحدة متكورًا، يرتجف كأرنب مطارد.. إنه الآن رجل صنعه ندار رسول الله ﷺ لينفذ ما أمره به.

أحسّ الدماء الحارة تتدفق من قلبه، وتغمر جسده كله.. أحكم الإزار حول جسده، شدته يداه بقوة.. لتكن العقدة خلف الظهر، قد يضطر إلى الزحف على ركبتيه، وربما على بطنه.. وقوسه!.. وتلفت.. استوقفته عينان تلتهمانه بنظرات مكبرة حملته على الابتسامة.. صرخ حذيفة في وجه الرجل مداعبًا، كمن يوقظ نائمًا: هاك.. ثبت القوس على ظهري.. اربطه بأطراف ذلك الإزار، وليكن على امتداد الظهر شاقوليًّا. وانحنى في حركة مفاجئة، حولت الموقف إلى دعابة، نقلت فرح قلبه المؤمن وانطلاقه إلى من حوله. وتابع ثرثرته المغتبطة: هذان الخفان.. قد يعيقاني.. وقذف بهما من قدميه الواحد تلو الآخر، ثم التقطهما، ودفع بهما إليه: إذا بعثوا إلينا غدًا بطعام، فادفعه إلى ابنتي.

* * *

الرمل يخز قدميه كالأشواك الحادة، ويلسعهما كالسياط.. والريح القارسة تخدش أنفه وخديه وشفتيه، ولا شيء بينه وبين المصابيح الخافتة في الأفق إلا الظلام والفراغ.. واستعاد صورة المعسكر، ودرس الاتجاه الذي عليه أن يتخذه إلى السرادق الكبير، وهمس لنفسه مشجعًا: ليس بعيدًا.

واستـدرك: لكن الطريق مكشوفة، وينبغي الحذر. واستدرك ثانية: لكن القوم في شغل بما هم فيه، وهذا يسهل مهمتي..

عندمـا بـدأ سيره كان يعرف أنه لا يزال فـي موضع آمن، لكنه راح يدرب نفسـه على الحذر والانتباه، وكيفية إخفـاء دبيب قدميه وحفيف أنفاسـه.. راحـت الأصوات تخفـت من ورائـه، وهو يتوغل فـي الفراغ والمجهول، تتقاذفه الريح، وتسوطه رشقات المطر الشعثاء، فتنال منه كل منال..

رفـع عينيـه إلى السمـاء.. لا سمـاء!.. ظـلام فوق ظـلام.. أدنى عمامتـه من أذنيـه دون أن تغلقهما، ومد إصبعه أمام عينيه.. خيل إليه أنه رآها، ولكن بعد أن أمسك بها بيده الأخرى، وانتابه شعور بأنه يسبح فـي ماء مثلج.. صفرت الريـح بعنف، وصكت جبهته ووجنتيه.. كان لها صريـر وجلبة.. لِمَ لا يركض؟.. لن يسمع له ركز وسط صخب وضجيج الطبيعة..

وركضـ متشوفًـا، مرهفًا سمعـه.. أيـن أصواتهـم؟!.. المصابيح الشحيحة المتفرقة لا تزال معلقة في الأفق، لكنها الآن تبدو أكثر ضياء.. إنهـا الشـيء الوحيد الذي يثبت له أنه لا يزال يـرى.. أما أصواتهم فلا يسمعها!.. هل يحبسون أنفاسهم ليفاجئوه؟! قد يرتطم الآن بأحدهم.. قد يمسك بعنقه.. وانكمش محاذرًا، يعالج خوفًا بدأ يذر قرنه في غفلة منه.. وفجأة توهج ذلك النور المكنون في أعماقه.. إنني مع الله، والله معي.. وامّحى كالسحر كل أثر للخوف، وذكر دعاء النبي ﷺ له، فأدفأه النور وأشبعه، وملأه جرأة وغبطة..

وعلـى الرغـم من أنه لا يـرى أي شيء، فقد أغمض عينيه.. وراح يصغـي.. أصـوات تصل إلى مسامعه.. أهم هـم؟! أحدّ البصر بحركة غريزيـة.. بلـى.. لقـد اقترب كثيـرًا.. إنه المـكان الأشد خطـرًا. هنا تتضاعـف توقعات اكتشافهم إياه، عليه الآن الدخول بينهم.. إنها نقطة الأمـان التي ينبغي له أن يجتازها قبل أن يستيقظ فيه الجوع والإرهاق، أو يقعده البرد. وأحس أنه قد تحول إلى عينين وأذنين فقط.

ها هم علـى بعد يسير.. إبل!.. إنه يشتـم رائحتها. واقترب أكثر.. البهائم تمنحـه الأمان والدفء. ومدّ بصره إلـى أقرب مصدر ضوء.. لا أحـد.. لا شـيء..! إنـه قريب جـدًّا، ولا أحـد بقربه. وأحـس أنه إذا جثـا فسيكـون بمأمن أكثر، ففعـل.. هبط بهدوء، غـرز ركبتيه وساقيه العاريتين في الرمل الرطب البارد، ونصب جذعه، وراح يتشمم الهواء، ويتحسس أي صـوت يلده الظلام.. وبرم بعصف الريح.. تمنى أن تهدأ لحظة واحدة؛ لتصله أصوات القوم.

فجـأة، وكحجر ألقـي في بحيرة، سمـع رغاء بعير بعيـد.. وتلفت: الإبـل هناك عن يمينه، وحاول تقدير المسافة.. ليست بالطويلة، وذلك المصباح.. واكتشف فجأة: أنا في المعسكر، بينهم.. وهبط شيء ثقيل مؤلـم في صدره، وتجمد في مكانـه، مغمضًا عينيه، وراح في ابتهال لم يكن من الممكن أن يتسع القلب لشيء سواه.

إن عليـه الآن البـدء بالمغامرة، سيمشي كما لـو كان واحدًا منهم. وهمس لنفسه: لنرَ ما فعله ابن مسعود.. وتجمد فجأة، وهو يسمع نداء: يا جابر.. يا جابر.

الآن.. لا مكان لأي شيء إلا العقل، فليستحضر ذهنه.. صاحب الصوت وجابر الذي يناديه هنا، بعيدان عن القوم.. وقدر الخطوات التي تفصله عنهما، وراح يرهف سمعه.. لا إجابة!.. ولمعت في ذهنه بارقة، فرفع صوته: لقد ذهب.

عاد الصوت أكثر وضوحًا: ماذا؟!

ذهب..

اقترب المتكلم أكثر: إلى أين ذهب ذلك السكير؟

مرّ بي شبح قبل قليل، لعله هو..

فساعدني أنت.

وأضاف متأففًا: تعسًا لهذه الليلة!

فيم أساعدك؟

تمسك بالقعب واحلب.

ولمن؟

لمعاوية بن أبي سفيان.

حسبته يغطّ في النوم.

سلبه يهود النوم.

أترى حقًّا أنهم ينفضون عنا؟

لقد انفضوا وقضي الأمر.. ولكن.. ماذا تدعى يا صاحِ؟

سُليم.

لبني عبدالدار؟ وماذا تفعل هنا؟

كان ذلك السؤال هـو ما يتجنبه حذيفة، لكنه كان حاضر البديهة، متيقظاً: وتعدني بكتم خبري؟

تأكل شيئًا؟

... أخلو بطيف من أحب.

يا للطيف! أفي هذا المكان، وهذه الحال؟!

وهل للطيف مكان، وحال يا صاحِ؟.. هلمّ نجلب اللبن.

هيـا، وأنشدنـي مما تنشد طيفـك، ولا يلهينك ذلك عـن الإمساك بالقعب، فتريق اللبن.

فجأة، تخلل عصف الريح ودوي الرعد نداء بعيد متقطع: هلموا إلى أبي سفيان.. أصاخ الاثنان.. وتكرر النداء: هلموا إلى أبي سفيان..

هتف المولى القرشي متهكمًا: أيضًا!! أي مصيبة وراءه؟

واتجهـت أنظار حذيفة إلى المصابيـح التي بدأت تومض وتختفي، محاكيـة الجلبة والضوضاء اللتين أثارهما النـداء، فاستنتج أنه قريب مـن السـرادق.. وحدد المـكان في ثوانٍ، وتوجـه إلى القرشـي، مبديًا الاضطراب: هيّا، ولنسرع..

أجل؛ علنا نسمع خبرًا عما يجري.

أنا سابقك.. وداعًا يا صاحِ.

وانفلت ملتحقًا بأقرب شرذمة من الرجال الذين ولدهم الظلام في لحظات، وراحوا يهرولون إلى السرادق.

بدا واضحًا أنهم يتأهبون لاجتماع.. اندس حذيفة يدافع الرجال المستهدين بأضواء المصابيح والمشاعل الشحيحة المتباعدة.. كان السرادق ضخمًا، تنير بعض جوانبه مصابيح ترتجف تحت سياط الريح التي تقتحم كل منفذ مهما ضؤل.

جلس الرجال جميعًا متراصين؛ التماسًا للدفء، وراحت عيناه تبحثان، وأذناه تترصدان، وهو أقرب ما يكون إلى الجثة الهامدة. وفجأة علا صوت أبي سفيان جهوريًّا، فاستقطب الأسماع والأنظار:

يا معشر قريش، لينظر كل امرئ جليسه، فإني قائل لكم قولاً لا أريده أن يبلغ محمدًا.

اتسعت عينا حذيفة، وانطبق شيء كالكِلّاب الحديدي على فوديه، وتوقفت أنفاسه.. ولم يدرِ أي قوة ألهمته ما فعل، فقد استدار بحركة غريزية مستنجدًا ببداهته، وما كانت لتخذله أبدًا عندما تمس الحاجة إليها.. ضرب بيده على يد الذي عن يمينه وبادره: من الرجل؟

معاوية بن أبي سفيان.

ثم استدار إلى شماله، مغتنمًا المفاجأة التي دهمت جليسيه، فضرب على يد الذي عن شماله: ومن أنت؟

عمرو بن العاص.

قال حذيفة شأن المطمئن المتمكن: حسنًا.

ثـم صمت صمتًـا مطبقًا، وثبت عينيـه على أبي سفيـان يلتقط ما يقـول. كان في داخله يغلي كمرجـل.. وأحـس أن ركبتيـه ستخذلانه لو نهض قائمًا.. أنقذه إسراع أبي سفيان إلى الكلام، كأنه يختصر الوقت: يا معشر قريش، إنكم، والله، ما أصبحتم بدار قرار. لقد هلكت رواحلنا، وتخلت عنا بنو قريظة، ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا، فإني مرتحل.

ثم قام إلى جمله، فحل عقاله وامتطاه، فانطلق.

عمت الفوضى، وانطلق النـاس يتخبطون في الظلام اللزج والريح التـي لا تـزال تعصف، كل يسعى إلـى ركوبته ورحله. أمـا حذيفة فراح يتسلل مبتعدًا، وهو يحمل كنزه في أعماقه.

هـذه المرة لم يكـن حذرًا، كما كان قبل ساعـة، بل راح يركض مع الراكضين النافرين في كل اتجاه، حتى تجاوز المعسكر.

مـن جديد انفـرد حذيفة بالظـلام والبرد والريـح، وزخات المطر الإبريـة.. كان قلبه يكاد يتصدع من فـرط تصارع الإحساسات، فانتزع عمامتـه، وجمـع إزار زوجتـه على وسطـه مهتاجًا، وانتصـب بعنفوان، منتشرًا، فاتحًا ذراعيه، رافعًا وجهه إلى السماء، يستقبل المطر والريح، وقد أحاله الخشوع إلى روح خالص، لا سلطان لقوى الطبيعة عليه.. كان قلبًا أثيريًّا يتوهج في أعماق تلك اللجة التي جمعت السماء بالأرض.

رسول الله ﷺ ينتظر...

وحذيفة يطير بالبشرى...

والخندق الذي يعترضه امّحى...

لا حصــار.. ولا أحــزاب.. ولا خندق.. كأنه لم يكــن قد حفره بيده بالأمس القريب...

عبــر المسافة في غفلة من الزمن، وأفاق وهو يصعد من الخندق.. لقد.. اجتزته!

وانطلق يهتف، مغمورًا بحلاوة غبطة لم يذق مثلها في حياته...

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر...



اللامنتمي

لم يعد يرى في الحياة الصاخبة، الغاصة بالمتغيرات من حوله إلا موني، لقد استعمرته تمامًا.. وجهها الصغير المرصع بالنمش.. شعرها النحاسي البراق الملولب، مفاتن جسدها المبذولة بسخاء حاتمي، والتي يتحرق إلى حيازتها، واحتكارها لنفسه، في بيت فخم، تستطيع ملايين أبيه أن تضمنها له.

وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فقد انحصر همه في امتلاك موني، في الوقت الذي أدرك أن الطريق إليها تختلف، والطرق التي يوشك أن يتقنها إلى النساء دونها عقبات، لا تقل صعوبة وعددًا عن البحار السبعة التي اجتازها الشاطر حسن إلى الست بدور.. فالطرقات إليها تمرّ من هناك.. من الرأس!! حيث المسالك الوعرة، والشعاب البكر، التي راح يستكشفها من أجل عيني موني.

ولأنه كان واثقًا في ذكائه، وقدراته المادية والمعنوية، فقد أصرّ على المضي قدمًا إليها.. فكر في أبعد وأعسر الاحتمالات.. كل شيء يهون في سبيل أن تكون له.. المال وحده لا يكفي، وموني لا تشترى بالمال.. وراح يترنم بذلك، متلذذًا متعجبًا، فقد كانت تلك الصفة مما يمتدح في موروثه الفكري.. وإلا فما كان هناك من مشكلة.. فهو يملك من المال الكثير، وقد رماه هنا وهناك، من حولها، دون أن يجرؤ على رميه عليها، قبل أن يتأكد له أنه لا يعني الكثير بالنسبة إليها، وإن لم يتبادر إلى ذهنه قط أن ذلك بسبب العفاف.

إنها امرأة من طراز فريد، تتحدث باحترام وإجلال عن الرجال ذوي المبادئ، عن أولئك الذين يتمتعون بركائز فكرية متأصلة، تصدر عنها تصرفاتهم، ويتكئون برجولة ورزانة على خلفية ثقافية وحضارية تطبع سلوكهم.. إنهم ساحرون! وقد خيل إليه ذات يوم أنه يمتلك مفاتح ذلك السحر؛ كونه مسلمًا وعربيًّا.. وأوشك أن يقدم إليها أوراقه بثقة، محملاً بكنوزه الرفيعة.. لكنه سرعان ما اكتشف أن مقولات موني العظيمة كلها إنما تبدأ بعد استبعاد كل ما له علاقة أو صلة بدينه وقومه!!

الدهشة التي صفعته يومذاك عفت عليها اللهفة المحمومة على البحث عن طريق أخرى.. لقد فرغت ساحة اهتماماته، إلا من البحث عن طريق إلى موني، وقد باتت الطريق اليوم أكثر وعورة، إذ عليه أولاً أن ينفي عن نفسه شبهة انتمائه القومي والعقدي غير المرغوب فيه. وهكذا راح يظهر لا مبالاته بكل ما يمتّ إلى دينه أو قومه بصلة، وباشر حملة بدأها من داخله، للانسلاخ عن جذوره المعششة هناك، في قلب العالم العتيق العريق، وفي تضاعيف الوجدان المتبلد، وفي أعماق الذاكرة المغتالة.

انخرط باستماتة في مجتمع مدينة الضباب.. دفع الكثير؛ ليتعلم أساليب القوم في المسلك والتفكير والمظهر.. بات يطيل النظر إلى نفسه في المرآة، يتخذ أوضاعًا مختلفة، يحاكي فيها توني أو ريتشارد أو جون. وكان يسرّه جدًّا أنه يمتلك بشرة بيضاء، يدين بها لجدته الإنجليزية، وقد طالما باهى بها إخوته وأخواته السمر. ولم يكن في ملامحه ما ينغص عليه رضاه إلا ذلك الأنف الأقنى، والعينان الواسعتان اللتان تحملان لون ليل الصحراء الحالك الغامر.

وهكـذا كان المبدأ حجر العثـرة الحقيقي الوحيـد دون موني.. راح يستعرضـ مـا فـي السـاحـة حوله من مبـادئ؛ ليعتنـق أكثرهـا نجومية وسطوعًا قربى لعينيها. وبدت له الشيوعية المرشح الأوفر حظًّا، وإن كان في داخله امتعاض ونفور مبهمان، يحاذر كل الحذر أن يشي لسانه بشيء منهما. لذلك حمد ربه كثيرًا على أنه قد اكتشف، في الوقت المناسب أن مونـي، المتعصبة ليهوديتها، تكره هؤلاء، وتقول: إنهم عبيد لساستهم.. ثم إن الشيوعية نفسها أراحته، فأفل نجمها، قبل أن يحسم أمره.

ضاقـت به الفِكَر وهـو يقلبها، ثم يستبعدها الواحـدة تلو الأخرى، وغلبـه إفلاسـه ويأسـه، وراح يطرح عليـه احتمالات غريبـة، حتى إنه تسـاءل: أيكـون يهوديا؟! ولكيـلا نظلم الرجـل فلا بد من القـول: إنه استبعـد الأمر تمامًا.. فقد فطن، بغضـ النظر عن استحالة ذلك، إلى أنه يجب ألا يظهر أمام موني رجلاً بلا مبدأ.. فهي قد تكتشف أنه تهود من أجلها، وهو عكس ما يريده.

يا للمرآة الفذة التي لا مثيل لها بين النساء في جميع أنحاء العالم! إنها تستحق أن يفعل من أجلها أي شيء...

وهكذا راح يصارع أمـواج حيرة خربت صفاء ذهنه، وقلبت هدوءه عواصـف، وشت بها هواتفه وأخباره، فأقلقت الأهل في الوطن، وحملت الأب الشيـخ المتهالك على شـد الرحال محزمًـا بملايينه؛ لاستطلاع أحوال رجائه، التي لم تعد تروقه في الآونة الأخيرة.

واحتفـى بملاييـن أبيه الوافـدة، المرمية بأريحية تحـت قدميه.. نحرهـا على مذبح التقـرب الحذر الذكي من مونـي.. ولم يذهب ذلك

هباء، ففي أمسيــة باذخة في عاصمة الضباب، أبدى أحدهم ملاحظة مباركـة، فتحت الأبواب المغلقة أمامــه. كان ذلك عندما حرص، كنوع مــن الظرف الاجتماعــي، على تقديــم المقعد الأفضل لأبيــه، بأسلوب احترامــي ملكي إنجليزي. ولــم تكد الجلسة تستقــر بالشيخ المستسلم المشدوه، الذي يتحامل على استنكاره وألمه وانبهاره، حتى قال أحدهم بصــوت بارد بطيء النبرات: الآباء مقدسون في الشرق.. وقالت موني، وهــو يعبّ كل كلمة تقولها، ويؤطرها كقــول مأثور، أو لوحة فريدة: إنهم شديدو الإحساس بانتمائهم، وهذا هو السبب في تعصبهم...

أدرك ما في عبارتها من انتقاد مبطن، وتأهب لنفي التهمة الشائنة عنــه، كأن يقول: سامحك اللّه.. نحن لسنــا متعصبين.. لكنها لم تكن العبارة التي ترضي وتعجب موني. وأسعفه أحدهم عندما انبرى، قائلاً: قــد يكون التعامــل مع الأبوين تعبيــرًا عن الحب أكثر مــن كونه تعصبًا للانتماء...

وأعجبــه الــكلام، ورغــب فــي توكيــده، فاقتــرب من أبيــه بحركة مسرحيــة، وانحنى خلف كرسيــه، محيطاً كتفيه بذراعيــه: والدي هذا أحب الناس إلي... وحرص على انتقاء الكلمات التي تلفت موني: علاقة فكريــة وطيدة تربطنــي به... إنــه فيلسوف بدائي مجهــول... لا يمكن تصــور ما في تفكيره من عمق... وراحت أذيــال عباراته تتعثر بالبحث المحمــوم عــن طريقة يواري بهــا والده عن الأنظار، فــلا يراه أحد من الصحب بعد اليوم.

هكــذا بدأت قصة صاحبنــا مع (اللاانتماء)، وهــو اليوم من أبرز دعاتــه، المؤتزرين بألقابــه المستحدثة كالتحــرر والعالمية والانفتاح،

التـي تدهن بها شفـرة السكين قبل غرزها فـي القلوب؛ كي تخفف من ألم الطعنة القاتلة.. وكفى بذلك رحمة وإنسانية!

لكـن الأمر لم يتوقف عند ذلك، فلا بد لـه، بين هؤلاء المتميزين فكريًّا ومنطقيًّا وسلوكيًّـا، من تبرير اتجاهه الجديد، ولم يجد صعوبة فـي أمثـال هذا القول: لقد كنـت لا منتميًـا دون أن أدري، فأنا أمارس عفويًّـا التحرر الخالص الشفاف.. إنه ضالتي التي بحثت عنها طويلاً، وشاءت المصادفة أن أهتدي إليها في ظرف غريب.. وها قد وجدتها، فـلا غرابـة إذًا في أن أرمـي بكل ما كان لـدي، وبلا تـردد من أقرب نافذة...

والحق أنه فوجئ بقناعتهم غير المتوقعة بما ساق من تبريرات، لقد بـذل جهودًا مشهودة في البحث عن الكلمـات والتعابير، ثم اكتشف أنه لم يكن ضروريًّا ألبتة، فقـد تقبلوا كلامه للوهلة الأولى ببعض الدهشة التـي أحس -بلا اكتراث- أنها مصطنعة. وحاول بعضهم مناقشته دون حماسة تذكر، وحاول آخرون الاعتراض دون حماسة تذكر كذلك، حتى إنـه أشفق من خيبـة مسعاه، بل بـدأ يستشعر شيئًا مـن مرارتها.. أما مونـي فقد لزمت الصمت.. وقد حيَّـره ذلك، وأربكه ترجح الاحتمالات فيمـا بيـن الاستنـكار والرضا.. ما يهمـه هي.. موقفها هـي.. واستمر صمتهـا حيال دعايته أكثر من جلسة.. ثم بدأ الإعجاب.. هكذا.. وطار صوابه...

وأخيراً وقع ما ظل يسعى إليه طوال أعوام ثلاثة.. أعجبت به موني.. تحققـت الخطوة الأولى في الطريق الطويلة، بل إنه هو أيضًا قد أعجب

بنفســه.. أعجب، على الأقل، ببراعتــه وقدرته على تحقيق ما يريد.. يا للإنســان إذا ما صمــم على أمر!.. لكنه في الواقــع إنسان متميز.. ألم تقل موني ذلك؟ ومادامت قد قالته، فهو حقيقة.. ولكنه ينبغي أن يكون صادقًا مع نفسه.. مبادئه!! لا تسمح له بالحكم العاطفي: ليس فقط لأن موني قالت، بل هو، فعلاً وبتجرد، يحس أنه إنسان متميز.

فجــأة انتابه شيء من القلق.. إن عليه الإلمام بفلسفة ذلك المبدأ، ولا بد من قراءة شيء مما كتب في ذلك، لكن دراسته المتعثرة تقتضي مضاعفة الجهد؛ لتلافي التقصير.. إنه الآن في ورطة، وينبغي أن يعتصر تفكيره للخروج منها.. هل هذا لازم لتستمر موني في الإعجاب به؟! قد لا يكــون الأمر بهــذه الصعوبة.. هي نفسها، هل تعــرف تلك المبادئ؟! وأوغــل حذرًا في تساؤلاته، التي جرؤ عليهــا أول مرة: هم أنفسهم، هل يعرفونها؟!.. قــد يجد نفسه غير مطالب بالفلسفــة الفكرية.. وربما لا يطالبونــه بشيء، فهم يبدون بشكل ما غير مبالين بالأمر بالدرجة التي تصــور.. ولــم تكن لديه الرغبــة للتفكير في الأمر أكثــر من ذلك.. كل ما عليــه الآن أن يهتدي إلى فكرة أو نقطــة محورية في المبدأ، يجلوها ويتحضرها دائمًا في تفكيره وسلوكه.

وواتتــه الفكرة التي يطلب، وأنفــق وقتًا ليس بالقصير في تصفيتها وبلورتهــا: لا ارتباط بعقيدة، ولا أمة، ولا وطن، ولا قوم.. لا ارتباط بأي شــيء كان.. كلمــة ارتباط، المفهــوم نفسه ينبغي محــوه.. ألهاه فرحه باستخلاصــ روح ذلــك المبــدأ كمــا بدت له عــن الإحاطــة بمعنى ما توصــل إليه، وألح عليه الجانب التطبيقي من الأمر، وهو الأهم والأجدر بالانصــراف إليه.. إذا استطاع أن يحتفظ بهــذه الفكرة حية في رأسه

فسـوف تنطلـق تصرفاتـه وفقًا لها، بعفويـة مقنعة، وسيعـزو أي خطأ يرتكبـه إلى سلطان العادة، ويؤكد بموضوعيـة وإخلاص أنه دائب على التخلص منها.. مسألة وقت لا أكثر...

وقفز مستطيرًا.. صعقه نجاحه.. كاد يصفق لنفسه، وهو يستعرض مزهـوًا الخطوات المعـدودات إلى النهايـة السعيـدة.. الآن، في جيبه الداخلي، كما اعتاد أن يقول، جواز المرور إلى قلب موني.. يا للنجاح!.. يا للصفقة الرابحـة!.. يبيع ماضيًا لم يحصد منه إلا الخجل والخيبة، بمستقبل ينخرط فيه بأمة من أرقى أمم الأرض.. ووخزته الكلمة «أمة!» إنها لا تتماشى ومبدأه الجديد...

وفـي أعماقـه، الممعنة فـي الابتعاد والتـواري، همسـت ثمالة من أصالة غاصة مجهضة: هذا خاص بأمتك.. واستدرج بمزيج غريب من البلادة والغربة: «السابقـة».. وصمت قليلاً في فراغ، ثم انتفض عائدًا إلـى زنزانته!.. نثـر رذاذًا منعشًا من زجاجة العطـر الثمينة، الجاثمة فوق كراس ضخم على الطاولة.. عبيرها يشعره بأنه يطير.. وهو أحوج ما يكون إلى ذلك الشعور.. هتف وهو يضغط زر المصعد، منتشيًا: إلى موني.. وأحسّ بخفة سريعة في قلبه.. الحب يصنع المعجزات...

عـاد الوالد الشيخ إلى الوطن، معتـل الميزانية والمزاج، يحمل في أعماقـه امتعاضًا غير محدد الأسباب.. وأمضـى مدة وجوده على متن الطائرة بصحبة مصحف صغيـر، يتلو آياته مبتهلاً إلى الله أن يحفظ ولده، ويكفيـه شر تلك المتاهة التي يدعوها لنـدن، ويعيده إليه ناجحًا مظفرًا يفخر به.

راحت اجتماعـات الرفاق تحمل كل يوم إلـى صاحبنا جرعات من التشجيع والرشاوى، وتقتحـم به أبواب مواهب وقدرات يتمتع بها، دون أن يفطن إلى توظيفها في خدمة أهدافه وغاياته، وها هو ذا، وليس بينه وبين استسلام موني وإعلانها الحب والعشق إلا أن يجرد قلمه الذي كان كنـزًا مدفونًا، ويثبت أنه كاتب ومفكر، تنشر الصحف مقالاته، وتجري معه دور الإذاعة اللقاءات، وتتعاقـد وإياه على كتابة التعليقات الفكرية والسياسية.. وفتحت موني والرفاق أمامه الطريق، صحيفة فصحيفة.. ما أكثر ما تعرف هذه الفتاة!

ولمـع اسمه، وتوطدت خطواته.. الطريق الذي لم يخطر بباله قط، الطريـق الذي يتحدث الجميع عن وعورتـه وعقباته ممهد، بل مفروش بالـورود كما يقـال.. وهو -وينبغي ألا يغمط نفسـه حقها- موهوب كان مغمـورًا، فقيض الله له... ! وكبـح تفكيره بعنف.. زجـر تلك الذاكرة المتحجرة، التي لم يرضَ حتى الآن عن استجابتها إلى الوضع الجديد، وعـدل العبـارة، مؤكدًا بصوت مسمـوع: «قيض» له مـن يأخذ بيده إلى الطريق الصحيح.

كان قلمـه إنسانيًّا بكل مـا تحمله هذه الكلمة مـن تألق وبريق، وما يحـق لحامل جوازها أن يدخله من بلدان.. والحق أنه كان يملك نصيبًا لا بأس به من القدرة علـى الإعراب عن أفكاره.. يـا للأفكار! يا للكنز الـذي هبـط عليه من السماء! كـم سهل له من أمور، وكـم أنجز له من أعمـال! موني أصبحت له... أكلت الغصة العبارة.. دفنتها في الأعماق التي ما تزال تخصه وحده. ازدردها كما يجب أن يفعل.. فلا مناص من تجرع الامتعاض الذي يفرضه عليه الإخلاص لمبادئه..

الجهـد المضني، الـذي كان يتطلبه النجاح فـي الدراسة، هو الآن فـي مكانه الصحيح، فإن من الكسـب للإنسانية أن يكتب. أما الشهادة الجامعيـة فقـد ضمنها له المخلصـون للإنسانيـة بأساليبهم الثورية، التي تحـرر المواهب مـن البيروقراطية، ولا تعترف بالكـدح في سبيل الهدف.. أليست الشهادة مؤهـلاً للوصول إلى المركز المبتغى؟.. فإنه يستحقه، بما يحمل من أفكار، وقلمه الفريد، بشهادة الرفاق، ولا سيما مونـي، ولذا فالشهادة أدنى ما يمكن أن يقدمه إليه دعاة الإنسانية على طبق من ذهب؛ ليتفرغ هو لدعوته...

كل مـا لذّ وطـاب اليوم ملك لـه.. عندما يعرف المـرء كيف يضع نفســه فـي المكان المناسـب يبدو الأمـر كالسحر.. إنه سهـل المنال، ولكن الاهتداء إليه صعب وعسير. لقد خدمه الحظ عندما اهتدى إليه، فتوغـل بقدم ثابتـة، على سجادات حمـر، مهيأة خصيصًـا لخطواته، وظل يتقدم بخـط مستقيم، إلى ما لا نهاية، ثمنًا للكلمة «النزيهة» التي تخـدم الإنسانية المتحررة من كل القيـود الوضعية، المعرقلة لتقدمها وتطورها.

اتسعـت دوائر نشاطاته، وأدار النجاح الباهر رأسه، حتى إن صورة مونـي قد تراجعـت إلى المرتبة الثانيـة في قائمـة اهتماماته.. وأحس إحساسًـا خفيًّـا أنها تتعمـد ذلك، ولم يتلبـث طويلاً عنـد الأمر، فقد تراخـت أغلال الرغبة المكبوحة التي كانت تتحكم في كيانه، وأفسحت المكان لسطوة التحمس لمشروع ضخم وضع في طريقه...

قلمه، الفريـد هنا، أكثر فرادة وتأثيرًا في بلـده، حيث تسود أفكار متعصبة مهترئة تقتضي الإنسانية تحرير المجتمع منها.. أم أن الإنسان

الغربي وحده يستحق أفكاره! واستبدت به الحماسة للمشروع، دون أن يجرؤ على مناقشة قناعاته بما يفعل، بل إنه لم يرد ذلك، فهو شديد الحرص على مكاسبه الجديدة التي قد يهددها التفكير والتمحيص.

دارت به عجلة الاتجاه الجديد بشكل سحري، وكما في كل مرة، كان الجميع يدفعونه إلى هناك، إلى الماضي الذي هرب منه طويلاً، وأرعبته فكرة العودة إليه سنين عدة، لكنه الآن يعود مصلحًا، يعود متحضرًا متفوقًا، لا صلة له ألبتة بابن تلك الأرض، الذي هجرها منذ سنين طويلة لتلقي العلم.. يعود لأنه يشفق على أولئك الناس، الذين لا تهب عليهم نسائم الفكر المتفتح. وإن مهمته الإنسانية عظيمة، فهو أقدر على الولوج إلى دخائل هؤلاء؛ لأنهم يعدّونه منهم.. هكذا يفكر أبناء العالم الثالث، وكان يضيف دائمًا بل الرابع أو الخامس.. وربما العاشر.. يقولها وهو يستحضر صور الجدران الطينية، والنوافذ الصغيرة التي تكاد تلتصق بالسقوف. ومجالس الرجال حول لهب الجمر، والقهوة بالهال، ورواتب الحديث، والصبية المتدافعين حفاة، فوق الرمل الحار، تلوث الشوكولا الإنجليزية، والكولا الأمريكية، أثوابهم البيض الفضفاضة، وأيديهم السمر النحيفة.

وعاد إلى الوطن، توزع بين الأرض الأولى، والطائرة، وعاصمة الضباب، وكان دعاة الإنسانية والعولمة والانفتاح قد هيؤوا له مركزًا مؤثرًا في ميدان مخاطبة العقول في محيطه.. رئاسة تحرير الصحيفة الأوسع انتشارًا.. رئاسة مؤسسة تربوية حساسة الاختصاص.. ووعدًا، يعرف أنه منجز، مادام يبلي بلاءه نظريًّا وعمليًّا في الدعوة إلى... ما يريدون.

أما موني.. فقد توارت تمامًا.. ولم يعنِه كثيرًا يقينه أنها كانت تؤدي دورًا مرسومًا في حياته، وربما تستعد الآن لدور آخر، مع رجل آخر.. إنها الآن ليست أكثر من امرأة شقراء جدًّا، تقيم في بيته العامر، في بلدها البعيد، ولم يصحبها يومًا إلى هنا.. شيء ما في داخله يرفض أن تأتي.. لعله تلك الأصابع الحديدية الخفية، التي تجبره على المجاهرة بما يثبت أو يؤكد الانسجام بين نظرياته ومسلكه، وعلى الرغم من كونه قد مارس ذلك بامتياز في كل المجالات، إلا أنه لا يجرؤ على التفكير فيه، بالنسبة إلى طبيعة علاقته بزوجته.. ولا يتصور.. أن ينمي إلى الناس هنا، ولا سيما أهله والمقربون منه، أن من مبادئه ومبادئها عدم التزام أي منهما بالإخلاص للآخر...

عندما رأى أخاه بالأمس يحتضن وليده، ويقول: إنه قطعة مني، أحس بشيء يسقط في صدره، ويرتطم بقاع سحيق، محدثًا صدى أصمّ أذنيه، وأطبق على رأسه، حتى لم يعد يرى ما حوله.. إنه لا يستطيع أن يقول مثل ذلك عن سوزان الصغيرة، فعلى الرغم من محاولات أمها توكيد الشبه بين ملامحه وملامحها، فإنه ثمة حاجز صفيق ساخر يقصيها عنه، حاجز لا يسمح بالقول: إنها قطعة مني، كما لا يسمح بالقول: وما أهمية ذلك! ...

عمله البطولي.. نضاله الشاق لإيصال الفكر المنفتح، إلى أعماق ذلك المجتمع المنغلق، يستأثر بكل طاقاته، يسد عليه أبواب الهواجس والهموم.. هكذا هم الأبطال، الذين يضطلعون بحمل المبادئ الكبيرة، تتوارى همومهم الشخصية خلف وهج مبادئهم، وتحترق رغائبهم في حمى الإخلاص والتفاني في خدمة تلك المبادئ...

هكـذا كان يفلسف الأمـور، ويبرر التطورات لنفســه، مدللاً إياها، غيـر ضانٍّ عليهـا بما تجنح إليه مـن ملاذ ومباهج. غيـر أنها لم تكن راضية، وهكذا قرر عدم الالتفات إليها، فالعمل أكثر أهمية من التنقيب عن آثار العادة والتربية والنشأة الأولى.. وهذا جزء من نضال أصحاب المبادئ العقلانية...

ليسـت أعماقــه السحيقة هــي الوحيدة التــي تضغط.. إنهـم الناس مـن حولـه.. إن عليه هنا مراجعــة كل عبارة، ومناقشــة كل فكرة يكتبها، أو يقولهـا فــي الإذاعة أو التلفــاز، أو يجاهر بها بيــن جلسائه. فليس من مصلحــة مبدئه إثــارة الناس، بل عليه أن يتوغل فيهـم برفق وحكمة. أما هناك في صحف الآخرين وإذاعاتهم، فإنه يطلق للسانه ولقلمه العنان.

المهــام الصعبــة التي توكل إليــه الآن، تقتضي الترويــج للإنسانية والعالمية، في شؤون الحياة المصيرية، إن عليه تهيئة الناس للاستسلام إلى أعدائهـم الأزليين! عليه أن يقول لهم: هــؤلاء الذين بأيديهم أزمّة الأمور، فاستسلموا إليهـم... وكان الأمر صعبًا في البداية. فالضربات المتوالية العنيفة، التي يتلقاها العباد والبلاد، مباشرة وقاتلة، ولم تكن قــط صريحة ووقحة كمــا هي اليــوم.. إنها اليوم تختصــر كل مقولات العقــود السابقــة، بصرخة فاجـرة مفضوحــة، لا مجــال لتأويلها: إما الموت، وإما العبودية.

ونظــر إلــى قلمه، فلم يجـد موضعًا، ورفع صوته فلم يلـقِ له أذنًا.. وتجرأ على الالتفات والسؤال: كيف أجهر بما أومر هنا، وبينَ هؤلاء؟!

وجاءته الصفعة سابقة الجواب العاصف، فالمعركة في ذروتها، ولا مجال للتردد، ولا مكان للمراعاة: صرح.. تصرف.

وانحنى بذلٍّ، إنه الثمن الحقيقي الذي لم يدفعه حتى الآن، على كثرة ما دفع.. كان يعرف أنه لا بد أن تأتي تلك اللحظة، وها قد أتت..

راح ينفث سمه في لدغات سريعة قاتلة هنا وهناك، ولا سيما من فوق المنابر البعيدة، وفي الصحف والمجلات ومحطات البث التي تطوي المسافات إلى تلك الأرضين، فقد كانت المواجهة تتطلب قدرًا من الوقاحة والصفاقة أكبر مما استطاع حيازته حتى اليوم.

كان الناس يرزحون تحت وطأة الحديد والنار، مثبتين أنظارهم على العدو الصريح، يترقبون انقضاضاته المتوالية، ويتقونها بأجسادهم الحية، التي تنصهر وتسيل على حجارة محارق النضال والصمود. وكان هو هنا، ولم يكن الوحيد، كان يحمل حربته الوضيعة خلسة، ويتنقل بها بين الأرجل بحذر، يترقب هدفًا آمنًا؛ ليسدد إليه طعنته بنذالة وخسة، ثم يمسح وجهه الملطخ برشاش الدم المغدور؛ ليتيح لعينيه المرعوبتين رؤية هدف آخر...

عندما قال له أبوه، وهو على فراش الموت: أنت جبان وخائن.. لم يجبه بشيء، كان كل همه أن يقضي على ذلك الشيخ الفاني قبل أن يسمع كلماته أحد سواه.. ولم تعنِ له أخواته شيئًا، فهداياه وهباته ومننه تسكتهن، ودعاياته الزائفة تقنعهن.. أما أمه فعجوز متهالكة، لا صلة لها بالعالم إلا من خلال الطعام والشراب.

وقضى أبوه بين الغضب والرجاء والألم. واقتصرت صلاته بالأهل على اللقاءات الخاطفة، التي كان يبررها بانشغاله الدائم.. أما سمومه فكانت تبث عن طريق أكبر مجلة في بلده، ولّاه صانعوه رئاسة تحريرها،

بمـا يملكون من نفوذ ، كمـا كانت تبث من خـلال نشاطاته الاجتماعية والسياسية، إلى كل الجهات التي تطولها أيديهم.

* * *

تسلـل جرس الهاتـف إلى غرفتـه هذا الصبـاح، ملحاحًـا عنيدًا متحديًـا. فتململ في سريـره، وتمطـى مستنشقًا عبيـر العطر الثمين الـذي ضمخ به رأسـه مساء أمس.. صبَّ أولاً جـام غضبه على زوجته، لكنـه سرعان ما تذكر أنه هنا، وأنها هناك فـي بيته الآخر في عاصمة الضباب.. وتحفز ليشتم الخادم البليد، ثم اكتشف أنه لا ينام الليلة في البيت.. وقرر تجاهل الأمر، والعودة إلى النوم...

تتابـع الرنين واستمـر. فنهض مغضبًا، وغادر الغرفـة إلى البهو.. رفع السماعة دون أن يقول شيئًا، فوصله صوت أنثوي: أنت «...»؟

أطـارت صلافة الخطـاب، وانتفاء اللقب، وعـدم التحية النوم من عينيه، وسأل بشيء من الحدة والاستنكار: من المتكلم؟

لا يهمّ الاسم، فلن تعرفني.

سأضع السماعة.

ستسمعني أولاً.

من يتكلم؟

اسمي فاطمة.. فاطمة لا تعرفها.. ستعرفها من كلامها.

هدأ من حدة لهجته: تفضلي...

أنــا واحدة من ناسـ هذا البلد، أسترق الوقت مـن مشاغلي الجمة لأقــرأ، وأوفر من الضرورات الملحة؛ لأبتاع الكتب.. وقد قرأت لك ذات مــرة فدهشت، ثـم قرأت ثانية، فقررت ألا أقرأ لــك بعدها، ولا أشتري صحيفتك أبدًا.. لكنها وقعت في يدي بعد حين، وغلبني الفضول أو الأمل فقــرأت.. ورأيتك كما أعرفك.. كتبت إلــى الزاوية الحرة! في مجلتك، مبدية رأيي فيما تكتب، لكن رسالتي لقيت مصير الكثيرات من أمثالها؛ لأن سياسة مجلتك تكريس فكرك، وقررت أن أعمل بفاعلية ضد الوباء الــذي تنشره بين الناس.. شكلت مع كثيرات وكثيرين ممن يشاطرونني الــرأي فريق دعاية ضــدك وضد مجلتك. ونجحنا فــي حمل الكثيرين علــى الإقلاع عن قراءتهــا.. وبالأمس سمعتك تقــرأ تعليقًا سياسيًّا من إذاعــة «...» أحسست أنه قــد آن الأوان لإسماعك رأي الناس الحقيقي فيك.. أنا واثقة من أنك ستسمعني، أليس هذا من مبادئك؟

استنجــد بما تفرضه عليه مبادئه من روح رياضية، وتصنع ضحكة لا مبالية: هات يا سيدتي...

تجاهلــت أسلوبه المسترضي المتملق: سأقول لك شيئًا واحدًا.. إن أي ثمــن في العالم لا يعدل المرء نفســه.. قف أمام المرآة، وانظر مليًّا فــي عينيك، فأنا واثقة بأنك لم تفعــل ذلك قط؛ لأنك من أولئك الذين يخشــون اكتشاف الحقيقة.. فــإذا فعلت، ووصلت إلــى مرحلة التقزز، فربما استطعت إنقاذ نفسك...

وأغلقت الهاتف...

هبطت يــداه كالشــلاء بسماعتــه، والتفت ببــطء إلى المــرآة عن يمينه.. مرحلة التقزز! قد يصلها، ولكن... هل يستطيع إنقاذ نفسه؟

رحلة إلى ..

أيها القلب.. عم تبحث؟!

... أبحث عن ليلة لا يؤرق رقادي فيها حنين، ولا يزلزل سكينتي شوق أو احتراق...

آ إلى الآن!

وفيم العجب الآن، وما كففت عن ذلك يومًا؟

الآن توشك أن تثقل كاهلينا السنون...

تعرفين أنني لا أعترف بالسنين، حتى عندما تعترف بها القلوب.

أيها القلب.. ما كان لك أن تستوطن صدري، فأنت قد خلقت للريح والفضاء.. ولا تنفك تطير وراء حلم ما يزال حلمًا، ولعله ليس لك...

مادمتُ صانعه فهو لي.

أتساءل أيها القلب.. هل تستحق هذا الحلم؟

الأشواق والأحلام وحدها لا يحكمها قانون الاستحقاق.. ولا توزع، كالأجور، حسب العمل...

... ولذلك هي عشوائية وخرقاء...

ولكنها تذيب قسوة الحياة.. ثم إنها ليست عشوائية، بل هي محكومة بقانون الإرادة الصارم، الذي لا يعترف بالتعب والألم وقسوة الحياة.

يا لنبضك المتمرد المجنون! تشتري ألم الشوق بقسوة الحياة!

... ألم الشوق!! ألم الشوق هو الحياة.

وماذا بعد يا قلبي.. هل أستمر في مشاركتك البحث عما تريد؟

مادمت أنبض في صدرك، فلن تحتاج إلى إجابتي، ولن تنتظريها...

وإلى متى؟!

إلى أن يتوقف هذا النبض...

وهل تحتمل، وأحتمل ما تريد؟.. إنك لتنوء بأشواقك، وهي مطويات فيك، فكيف إذا دفعت آخر رمق فيك ثمنًا لها؟!

عندئذ لن تكون الأشواق، ولن أكون.

لا أجرؤ على مطالبتك بالتخلي عن أشواقك، فلن أرضى إذا استجبت لي أن تكون قلبي.

الآن، هذه أنت.. هذا نحن...

أتدري! .. أتمنى أحيانًا أن تدمرني عواطفك، أو أجد الوسيلة لامتلاك أزمّتها؛ لأواقع الحياة كما يفعلون.

لن تعيشي الحياة كما يفعلون أبدًا، فعواطفي قدرك الذي اخترت...

العيش معك.. الموت معك.. العجز عن احتمالك، والعجز عن التخلي عنك، كل ذلك مرّ وحارق، أنوء بعبئه ولا أريد التخلص منه...

أرأيت هذا قدرنا، وجدنا معًا وسنبقى معًا.

ومتى ينتهي الترحال أيها القلب، الذي لا مثيل له؟

لن ينتهي أبدًا.. أنسيت أننا اتحدنا يوم تعاهدنا على أن تخضعيني إلى نواميس الحق والخير، مقابل الاعتراف بأشواقي؟!

فما لأشوقك أن ترهقني من أمري عسرًا؟ مالها تحملني ما لا طاقة لي به؟

لا تصدقي ذلك.. إنما يدفعك إليه إيثار العافية.. إن أشواقي قسمة بيننا، ولا سكينة لك إلا بسكينتي...

ولكن سكينتك عزيزة المنال.. وها قد انقضى العمر، إلا أقله، ولما نلتقها...

وهل آلوت في ذلك جهدًا؟ إنك لتلومينني على أنني ما أنفك أبحث...

اعذرني أيها القلب، إذا ما قسوت عليك.. فلعلك تبحث، حيث لا يجدي بحث.. ولعلك تبحث عما ليس له وجود...

كرّ الليالي وتقلب الأحداث علماني أين أبحث، وعمّ أبحث.

فأنت الآن تعرف عمّ تبحث وأين...

لا تتسرعي بالتفاؤل، وإن كان يعزّ علي قول ذلك.. فإنه لا يكفي من ينشد الحلاوة أن يعرف أنها في تمرة فوق نخلة.

أيها الصلب العنيد، الذي يرهقني جدلاً.. أي أمل هذا الذي وراء إصرارك وعنادك إذا؟!

إنه الوعد الحق بالسكينة والقرار، وأنا مطمئن إليه...

ولكن الدرب طويل.. ولا بد للرحلة من زاد.. ترى هل يعزيك أن تلقى من يملك مثل أشواقك؟

لم أعد أجرؤ على الجزم بذلك.. فما أظنك نسيت أولئك الأخلاء الذين التقينا على مدار الأيام.. أولئك الذين كانوا يصيخون إلينا.. يضحكون ويبكون معنا.. فنماهيهم بكل شوقنا إلى القرار، ونحتضنهم بكل عطشنا إلى الألفة، ثم فجأة تمتلئ سماواتهم بالدخان والرعود، وتغصّ بحارهم بالظلمات والأنواء، وينبت الشوك والصبار كالحراب، في كل شبر من حقولهم، فننسلخ عنهم، مغادرين على جدران حيواتهم مزقًا، تظل أماكنها أيامًا وليالي وسنين تنزف فينا، جارفة بقايا الأمل والرجاء...

ها أنت ذا لست ناسيًا ما خضت بي من غمار؛ لنصل إلى هذه الأرض، أو تلك السماء، أو نجد لنا نقطة في الأثير نستوطنها.

وكيف أنسى.. وما كففنا عن ذلك قط؟ ثم ها نحن أولاء على شطآن الشوق المترامية من جديد، ولا بد لنا من مرفأ أو سفينة...

لا مفر من الانصياع إلى أشواقك أيها القلب.. عهدي لك يلزمني بذلك.. ولكنني لا أريد الارتحال في البحر.. الموانئ والسفن والامتداد

الغامض، بقدر ما تغريني، تحمل إلي الارتعاد.. لن أتحمل غدر البحر.. فمن يدري أي جراح تلك التي قد تسبقه!

هيا بنا.. لا تهمني الجراح، ولا غدر البحر، مادمنا معا.

أتخشى الرحيل من دوني؟

لن أرتحل من دونك أبدًا...

* * *

أتشعر بالبرد يا قلبي؟

إن للانتظـار لدفئًا.. إن له جناحين يحملان إلى الآتي، بما فيه من دفء الأمل...

لكنه إذا طال بعث الفكر.. فها نحن أولاء على عتبات خريف العمر، لا نعرف لنا محطة، بل نتكوم على رصيف في انتظار قطار، وحيدين إلا من الليل والصمت والوحشة.. وقد طال بنا الانتظار...

ألا تعود بنا إلى البيت.. ننام.. نستمتع بالشمس والهواء.. نستجدي القصد والإيمان سكينة وسلامًا؟

القصـد والإيمان.. ذلك الوعد الحـق بالسكينة والقرار، ولكن لعل رحلة الحياة لا تزال طويلة، فلا بد من زاد لما تبقى من أيام العمر...

أسألك للمرة الأخيرة: هل تحتمل المزيد من التشرد وراء الأشواق؟ المزيـد من تشمم الريح، وتحسـس نبض الأرض، والتطلع إلى النجوم؛ التماسًا للطريق إلى ماء الحياة؟

لا بأس ما دمنا معًا...

يا قلبـي، الذي أعذبه ويعذبني.. لكم من التجـارب سيتسع العمر، وقد بدأت السنوات ترهق الكاهل، وأعجب كيف لم ترهقك؟!

لقد أرهقتني، ولكنك لا تشعرين.

كيف؟ وأنت لا تزال تحملني على الترحال والمغامرة بهذه الحماسة التي أغبطك عليها؟!

ألم أقل لك: إنه قدرنا؟

إنه حقًّا لقدرنا.. فهيا بنا.. إن في الأفق شبح قطار...

اليـوم قد تطول الرحلة أكثـر.. ومن يدري، فقد لا نصل أبدًا.. فأنا قـد عزمت ألا أترجل بك فـي محطة كتلك التي تقـف فيها القطارات، وتنتهي عندها الرحلات.. اليـوم أبحث عن محطة خاصة بنا.. محطة لا يقـرّ بوجودها أحد، لكنني أريدها، وسأسعى بك إليها، أيتها المعذبة بي، كما أنا معذب بك...

كأننـي اكتشفت، الآن فقط، أنك عندما تسعى إلى أمر لا تفكر قط في الطريق، ولا تكاد ترى سوى ما تسعى إليه...

لا يحملنك عزمي على الظن أنك ستجدين في محطتي ما يرضيك ويرضيني، فقد تستقبلنا بعاصفة من الرمل، أو بثلة من رجال الشرطة، ينقلـون أعينهـم بين أوراقنـا ووجهينا، ثـم يشيرون إلينـا بالعودة إلى أماكننا؛ لأننا لن نجد لنا مكانًا في بلدتهم.

لا بأس عليك يا قلبي.. إن من يعتزم خوض المجهول بحثًا عن مثل غايتنا فلن تضيره عقبات الطريق.. ولن تستمر الرحلة إلى الأبد، فلا بد أن نترجل في محطة، ولن تكون أبخل من تلك التي انطلقنا منها.

من يدري ..؟ فقد تكون كذلك.

فلتكن.. إن باب الرحيل لا يغلق أبدًا...

فهاتي يدك.. إن الطريق، على ذلك، طويلة، والترحال مضنٍ...

أي راحلين نحن! فلا حقائب لدينا، ولا نملك ثمن بطاقة الركوب.. ولا نعرف إلى أين يسير بنا ذلك القطار الذي لا يكفّ عن المسير.. ولكن في الخيال محطة...

آه.. ها أنت من جديد كم أعرفك.. تخففت فجأة من كل ما كان يثقلك، وانطلقت معي.. في رحلة حمقاء بلا مال ولا متاع.

لا حاجة بنا إلى المال والمتاع.. أنا لدي قلمي، وأنت لديك الحلم.. ستقدم إليّ النبض، وسيتولى قلمي ما تبقى من العمل، وسنعرض بضاعتنا في أول محطة ننزل فيها...

حديثك يحمل على الشجن.. يعدني بحلم دافئ لا يطال.. ترى هل أجد يومًا ذلك الرفيق، الذي يقف معي في اللحظات البائسة، ويركب معي القطارات إلى المجهول كما تفعلين؟

يا لولعك بالشجن أيها القلب.. ها قد منحتك ذلك الرفيق، قلمي.. وما كان إلا كذلك...

إنه ليس رفيقي.. إنه أنا...

دوامتك المضحكة المبكية تلك.. أخرجني منها، وعدْ بنا إلى ما كنا فيه.. أريد منك وعدًا صريحًا وقاطعًا بالمساعدة؛ لنحصل على ثمن بطاقة الركوب.

أي وعد هذا الذي تطلبين! إنه وعد قائم، ولا سلطان لي عليه.. عندما أحس بدفء الحياة أو بردها، بشوكها أو حريرها، فأنا لا أتخلى عن الحلم، ولن أضن به عليك...

وإذا انتهت الرحلة، أو نادتنا رحلة الأبد، أو شاخ القطار، أو استبدلت مركبات الفضاء بقطارات العالم، قبل أن نجد من يشتري بضاعتنا؟

لا بأس.. مع ذلك لن يعيدنا أحد إلى حيث كنا؛ لأنهم لن يجدوا لدينا الأجر اللازم.. وهكذا نكون أقرب إلى محطتنا التي لا نعرفها منا الآن...

... ومن يدري؟ فقد تسلمنا رحلتنا، بعد كل ذلك، إلى مرمى الأشواق.. إلى حيث قد تجد لك مقعدًا تقرّ فيه، أو سريرًا يمنح جرمك المتعب المقرور الراحة والدفء، أو جدارًا تلتصق به متأملاً بأمان، من فوق كتفيك ورأسك، صدره الرحب الذي تستوطنه، أو منضدة تحتضن أوراقك وأقلامك ومرافقيك...؟

أترين ذلك واقعًا؟

... لا أريد الغوص إلى ما وراء هذا الصمت، فتكلمي.

أخشى ألا تفهمي...

أفهمك؟ ... أنا أعرف ما ستقولين...

حسنًا أيها القلب، إذا كان الترحال قدرنا، فلنجعله جميلاً أو مقبولاً...

هكذا يتجمل الإخفاق.. ما أبلده، وهو يصر على ممارسة تلك اللعبة المفضوحة!

لا تسترسل.. اسمع.. ثمة طريق مضمون النهاية.

أعرف تلك الطرقات.. أعرفها كلها.

إنه من ابتكاري...

كذلك أعرف ما ستبتكرين، ولن يعدو بعضًا من التنازلات بصيغة جديدة...

ليس هذه المرة.

فاسمعي إذًا: لن يضيرنا أن يكون مبتغانا مزيجًا من الواقع والخيال، لن نطالبه بتشدد أن يكون كما نتوقع؛ لئلا نكتشف فجأة أن ما نسعى إليه مجرد خيال. أليس هذا ما ستبتكرينه؟

... أيها المتعب الذي يجمع النقيضين: التمرد والصبر.. أيها المحكوم بالمسافة الهائلة بين ما يمكن أن يملك وما يكفيه.. متى ستتعلم أشواقك القناعة!

عندمــا يبرد كل شيء، ويسكت كل شيء، ويظلم كل شيء. وأنام في صدرك، فوق ذلك الكوم الهائل من الأشواق والآمال والرغبات، عندها سأكــون غاية في القناعة، فــلا أنزع إلى غاية، ولا أتطلع إلى أفق؛ لأنني في تلك اللحظة، لن أكون بحاجة إلى أي شيء.



حكمة من صبي

مــدّ يده إلي بورقة جمع إليها قلمًا، وقال، وهو يخرج رأسه المشعث من جيب قميصه: اكتبي لي بعض الأخبار الجديدة.. المثيرة.

- أي أخبار؟

رماني بنظرة لوم مداعبة: .. أخبار الدنيا.. أستاذ التربية العسكرية يسألنا أحيانًا عن آخر الأخبار.

تناولــت الورقة والقلم، وأنا أشير إلى ساعة الجدار مؤنبة: السابعة والربع، الآن تذكرت الأخبار؟

أجــاب، علــى عجل، وهــو يحشر قدمه فــي حذائه الغليــظ: رؤوس أقــلام.. مــا قلته البارحة عــن المــرأة وأطفالها الست فــي الجنوب.. قصف منشآت النفط في شمالي العراق...

ونهضـ يضرب بقدمــه الأرضــ، لتستقر في الحــذاء، وهو يضيف بسخرية مرّة: ما شاء الله.. الشمال والجنوب!

انتزعــت عبارتــه الأخيرة فتيــل غضبي، فقــد سرتني تلــك اللفتة الذكية، بقدر ما آلمتني ترجمتها العفوية لإحساسنا بالإفلاس والمرارة أمــام واقع غاشــم، يستهدفنا بقوة فاجرة، ويحــرق، فيما يحرق، توقد هــذه القلوب النقية والعقول الذكية، التي كتــب عليها أن تسحقها رحى ظالمة، تديرها أيدي أعداء لا يرقبون فينا إلاًّ ولا ذمة...

ازدردت غُصّتــي وشرعت أكتب على عجل، مؤجلة اللوم.. ثم دفعت بالورقــة إلى ولدي ذي الاثني عشر عامًــا، وهو بالباب يستعجلني؛ كيلا يتأخــر عن وقت المدرسة. وقلت بعتــاب رفيق: من الآن فصاعدًا عليك الاطلاع على الأخبار بنفسك.. أصبحت شابًّا...

قــال وهو يطوي الدرج قافــزًا، دون أن يلتفت إلي: أصاب بالاكتئاب كلما استمعت إلى نشرة أخبار.

قلت: سنتكلم في ذلك فيما بعد...

عندمــا أنهى واجباته المدرسية، هذا المســاء، لم أجد صعوبة في العثــور علــى محطة بث تستعــد لتقديم نشــرة أخبار.. ناديتــه: تعالَ.. حدثني عما جــرى في درس التربية العسكرية اليــوم، ريثما تبدأ نشرة الأخبــار، فنستمع إليهــا معًا. قال بلا حماســة: ... الجميع تحدثوا عن الموضوعيــن.. بعضهــم ذكر أيضًا رد المجاهديــن السريع.. لم تكتبي لي عن ذلك...

قلت معتــذرة: لم أكن قد علمت بالأمر بعد.. ثم إن عليك الاستماع والكتابة بنفسك، كما قلت لك...

بــدأت نشــرة الأخبار.. جعلــت أستمع إليهــا، حبيسة دائــرة الألم اليومي الذي أصبح خبزًا وماء لا غنى عنه ولا غناء فيه.. وفجأة تذكرت الصغير القابع إلى جــواري.. استرعاني صمته وهدوؤه، فجعلت أراقبه خلســة.. كانت عينــاه مسمرتين على شاشة العرض، وأصابعه تضغط بتوتر على جانبي جهاز التحكم الذي يمسك به.

لم أكن أسمح لأولادي بالكلام، وهم يتفرجون.. مهما كانت المادة التي تبث.. وعندما بدأت الأخبــار العالمية، مددت إصبعي إلى الجهاز الــذي يمسك به ولــدي؛ لأكتم الصــوت.. والتقت عينــاي عينيه، كانتا كابيتيــن، يزحف التعب علــى أجفانهما.. تمطى، وقــال مبتسمًا: شيء بشع.. لماذا يقصفوننا هكذا؟

مــرة أخرى وكمــا حدث في الصباح، منحنــي صغيري تلك النعمى المسروقة من إجحاف الواقع وقسوته.. ضمير الجماعة في «يقصفوننا» كان كالسحر.. نظرت إلى ولدي، ونظرت إلى التلفاز.. ما أضألهم أمام تلك الكلمة التي ينطق بها طفل! .. كيف يحاولون تكريس المستحيل.. ! كيف تنفصل عرى ما تزال موصولة منذ آلاف السنين، يحس بها أطفالنا كما يحسون طعم الحلوى، ويتذوقونها كما يتذوقون نكهة اللعب!

انتبهــت إلى أنه ينتظر إجابة سؤاله، وكمن يستهلك الوقت بانتظار الإجابــة راح يتســاءل: لم لا نرد عليهم؟! .. ألا نملــك أسلحة؟! .. ماذا سيفعلون لو رددنا، هل يدمروننا؟! .. أحسن من هذا الذل...

سيل من أسئلة وتعليقات قد أعرف إجاباتها، ولكننــي لا أعرف كيف أوصل تلــك الإجابات إلى فتى في الثانية عشرة، فتحت له النافذة على مشهد مشوش مشوه لا أملك له تفسيرًا، ولا أعرف عليه تعليقًا.

أضــاف كأنه قد يئس مــن الجواب.. أو لعلــه أدرك بلبلتي، فطالما تبادلنا، نحن الكبــار تلك الأحاديث على مسمع منه: أمي.. كيف نسمح أن نقصف هكذا، ولا يرد أحد..؟!

ما أوجع براءة هذه الكلمات! وما أصدقها! كيف نسمح؟ لا أحد يرد.. آه يا صغيري.. إلى كم من الوقت والجهد نحتاج لإجابة سؤالك؟!

عاد ينتظر إجابتي مبديًا تجملاً أو إشفاقًا أو تعاطفًا، وكانت مرارة التخبط في أمثال ذلك الموقف أمام أخته الكبرى، قد بعثت على لساني متحفـزة للانقضاض علـى الكلمات في مهدهـا، برغم أنـف السنين الثمانـي التـي انقضت، وبرغم أنف الظروف التـي تدعي أنها تغيرت.. تلـك المرارة التي عكست معاناتي آنـذاك على الورق، حيث لم أجد لي مفرغًـا غيره، أبثه هموم أم تواجـه حيرة أطفالها وألمهم أمام أحداث لا تخضع إلى منطق، ولا تعيها أذن واعية:

مـاذا أقـولُ إذا تعجـبَ خـالـدٌ؟

ماذا أجيبُ، إذا تساءلَ مصطفى

طفـلانِ ربِّيـتِ الخـلائـقُ فيهِما

قبلَ الجسومِ، علَى المروءةِ والوَفا

فلـم يكن الوقت قد طال بي كثيرًا، وقـد أصبحت أمًّا، حتى أدركت خطـأ المقولـة المتداولة التي تدعي أن الصغـار لا يفهمون، فقررت أن أفتـح كل البوابات الممكنـة بيني وبين أولادي، وها أنـا ذي أجدني في واحـد من تلـك المواقف التـي لا أحسد عليها، وقد نصحـت لولدي أن يطلع على ما يجري من أحداث في عالم لا يفهمه صغار ولا كبار...

التمزق الذي أعانيه مأسـاة كل أم مسلمة، تتجاوز الأمومة عندها الغريزة، ويتجاوز البنون زينة الحياة الدنيا، إلى صنع الإنسان الكريم، فالحياة الكريمة، كما أرادها الله، واستخلفنا في الأرض لصنعها...

علـى الرغم مـن علقم الذكريـات المتربص بي، فـي ليلة أشبه مـا تكون بالبارحة، كان لا بد من تعليـل النفس بمتعة محاورة الصغار،

والتلـذذ باستشراف عوالمهم النقيـة.. فقد كنت وما زلت أمارس ذلك الفـن كوسيلة لبعث الخيال، وإحياء غضـارة الروح لاستلهامها الصدق والنقاء، كلما شدني شوق إلى القلم...

مـا أروع أن نصغـي إلى الأطفال! صوت الحقيقـة الناصع الذي لم تشوهـه الأكاذيب، ولم يمسخـه بهتان القوة الغاشمـة.. صوت الفطرة القـوي، بما فيه مـن إيمان، وقصد تلقائي، يلغيـان بعبارة طفلة نظيفة جهود الظلام عبر قرون لطمس الحقائق وتشويه الوقائع.

ومـرت في خيالي صـورة، لا أذكر هل مـررت أو سمعت بها،أم هي مـن بنات الخيـال الذي تشحذه الحاجة.. لـو أن الأطفال يحكمون هذا العالم! ودون رويّة توجهت إلى صغيري، الذي لم أعد أخفي عنه رغبتي فـي أن ينتظر ردي علـى استفساراته: نجيب.. ماذا لـو جعلوك حاكمًا للعالم؟

لم يفاجئه سؤالي كثيرًا، ولعله لمس من بلبلتي ما زهده في الإجابات التـي كان ينتظر، فرحمني ولم يمارس إصراره المعهود، وأطلق ضحكة صغيرة متهكمة: ... للعالم كله؟!

- أجل ...

قال بلهجة مسرحية: أنتحر...

- أنا جادة... أريد أن أعرف إجابتك.

- ... كيـف يمكن أن يحكم هذه الدول المختلفة في كل شيء حاكم واحد؟!

من جديد فوجئت بمنطق الطفولة النقي، المنطق الذي يؤيده الواقع، ويكابر في التعامي عنه وتعميته المزيفون الذين يحلمون بإخضاع الدنيا إلى مصالحهم ورغائبهم، واتخاذ أرض اللّٰه مزرعة يستثمرونها، وعباده سخريًّا...

قلت أجاريه: ... ليس كله.. فلنقل حاكمًا للدول العربية.

صمت قليلاً ثم هز رأسه بأسف: لن يستمع إلي أحد.. سيقولون: ولد صغير!

- حسن.. فحاكمًا للأطفال...

لم يكن هذا ما أريده، ولكنني كنت مجبرة على التنازل لجره إلى الحديث، وصرف اهتمامه عن طلب إجابة مباشرة لا أملكها، أو استلهام كلامه إجابة قريبة المرمى من الحقيقة الحالكة، بدلاً من إجابة في صميمها، قد يضطرني إليها الكلام.

بدأت الحماسة تتوثب في عيني ابني، وهو يسوي جلسته استعدادًا لحديث يهمه، وقال باندفاع: أولاً نتفق على أشياء...

- حسن، كيف تتفقون؟

هدأت حماسته قليلاً: ... ماذا تعنين؟! .. نتفاهم...

- كيف تتفاهمون؟

قال بشيء من الاستغراب: أعني.. كالعادة.. هناك أشياء تهمنا جميعًا.. نتفق على تنفيذها..

أدركت أن الاستمرار في الحديث على هذا المنوال لن يخرج عن إطار: نتفق ونتفاهم.. وتململت من عدم قدرة أي منا على تجاوز هذا المطب الدبق، للانطلاق إلى فرجة في أسوار الواقع التي تسجننا.. وأخيرًا بدأت أعزي نفسي، بل ألومها، فهل كنت أتوقع أن أخرج من جلستي تلك بحلول لمشكلات العالم!

عندما لمس ولدي دخولي من جديد في دوامة التفكير، انصرف إلى ما يهمه من الحديث غير ملتفت إلي، فانهمك في شرح جملة مطالبه الطفلية، مصرًّا على التحدث بضمير الجماعة، كما لو أنه أطفال العالم كلهم.. وعاد رنين العبارات النحاسي الحاد، وبريق ضمير الجماعة الساحر يطفو على صفحة الفكر، وتدور رحاه الثقيلة، فتبرد سطحها الملآن نتوءات تحجب الشمس والهواء، ولا تكاد تسمح لأنملة بالتسلل إليها لتهزها، فتوقظ الإحساس في خلاياها المتموتة.

لقد رفض أن يكون حاكمًا من الطراز الذي نعرف.. لم يكن إلا واحدًا من الآخرين، يعمل معهم، ثم يقدم الحل ببساطة.. الحل الوحيد الذي لا نجهله، ولكننا لا نطبقه أبدًا.



من مذكرات
هشام بن عمرو بن الحارث

٧ – حزيران – ٦١٩م

صورة صغار بني هاشم العجاف، يتراكضون في عجاجة من الغبار شُعثًا، مهلهلي الثياب، لا تريد أن تفارق مخيلتي.. تسدّ علي أفق النظر والفكر، أينما وجهتهما.. أعز الناس، وأكثرهم رفاهية.. المطعمون المنعمون، جوعى حفاة عراة، أقصى ما يحلمون به بعير محمل بالطعام، يترقبونه في فرجة الشعب الأيام والليالي الطوال؛ ليسدوا الرمق بما يحمله من زاد، ويستمسكوا به في حصارهم المرير بين تلك الصخور القاسية...

الرضع، الذين قاوموا الموت.. الذين امتصوا الحياة من صدور أمهاتهم، كبروا.. عرفوا من الفرح .. الفرح باللقمة، بعد أن كان مقررًا لهم الفرح بريادة العرب، وسيادة تلك الأصقاع...

يا للجريمة! بل يا للعجز! إلى متى سأظل أختلس غفلة أولئك الجلادين الأجلاف، الذين يسدون المنافذ دون الحياة، وكأن غايتهم القضاء على «محمد» وصحبه... ؟! لقد طال الحصار، وأربى الأمر على العداء.. ولم يعد يخفى على أحد أنه خدعة من الرؤوس الآثمة، انطلت على الناس، فأيدوا وعاضدوا.

... يـا لتواضـع ما تقـدر عليه يا أبـا عمرو.. ما تـزال تخرج إليهم متخفيًـا، ببعيرك الموقر قمحًـا وتمرًا، برغم يقينـك أن ثمة من يفعل مثـل فعلتك.. فما يعقل أن تنتفي المروءة فـوق تلك الرمال.. وما يعقل ألا تنجب تلك المفاوز الولود رجالاً ذوي ألباب سواك! يا أبا عمرو، ألم يئن للحق أن يجهر بما يجهر به الباطل!

ما هذا العتاب الرفيق الخانع لذاتك! وما هذا السكوت الشائن عما تقتضيـه الهمة والمـروءة! وما هو الثمن الذي تشفـق أن تدفعه، إذا ما أخلصت لما تراه صوابًا؟!

علـي أن أتحرك، أن أفجر ذلك المرجل الـذي يعتمل في أعماقي، فـلا أفعل أكثر من زحزحـة غطائه قيد شعرة، كلمـا أحسست أنه على وشـك الانفجـار.. فلينفجـر ذلك البـركان، وليتم ذلـك بحكمة.. وما استنجد عاقل بحكمته فخذلته.

٩ – حزيران – ٦١٩م

اليـوم لا شيء يعكر صفوي، وقد فرغـت لشعور يحتدم في صدري، وينفـث النار فـي أوصالي، ويشعل فـي نشاطاً بعُدَ عهـدي بمثله.. فقد أنجزت عمـلاً، أتاح لي نفسًا عميقًا مريحًـا، وأزاح عن صدري كابوسًا ما انفك يحرمني لذاذة ارتشاف الهواء أعوامًا ثلاثة...

أن تشعـر أنك تقوم بمـا لا تريده تحت ضغط مـا.. أن تحس، أنك مصادر الإرادة والحرية، شيء فظيع، لكن ما يقتل حقًّا أن يفرض عليك التصرف بشكل مخالف لما تريد، ثم يطلب منك تبرير ذلك التصرف، وابتكار الحجج المنطقية لإقناع الآخرين بسلامته وصحته.. هذا وحده كفيل بقتلك...

مــا أشد ندمي وأسفي على كل يوم مضى دون أن أحسم أمري، وأفعل ما فعلت اليوم! حقًّا إن الانتصار مثل الهزيمة، كلاهما يبدأ من الداخل.

لــم أشــك لحظة في أن تلــك الفكرة تدور في رؤوســ الكثيرين، أن ذلــك التحرق إلى إحقاق الحق، وإزهــاق الباطل، ليس حكرًا علي، لكن ذلــك لــم يكن كافيًا، ولــم يكن ثمة بدّ مــن اتخاذ الأسبــاب بكل عناية وحرصــ. وقد هداني إعمــال الفكر، إلى البحث عمــا أستطيع تسخيره لخدمة غايتي.

أستطيــع استغلال ما جــرى بين أبي الحكم، أو أبــي جهل كما بات يكنى، وزهير المخزومي، لتفجير مواجهة بينهما، تتيح الفرصة لإعادة الحسابات.. يا لوقاحة هذا المتجبر وصلفه الذي لم يجد من يكبحه!

فقــد تخــدم الأقدار القــوة الغاشمــة بضعف من حولهــا، فتتبختر بحماقــة قذرة، وتدوس كل مــن يخالف لها رأيًا، أو تسول له نفسه النيل من سلطانها عليه.

أبو جهل لا يعتــرف بحق زهير، الذي تقرّه جميع الأعراف والناس، في برّ أمه، القابعة مع المحاصرين في شعب أبي طالب، وأخواله الذين يتولــون شأنها، في تلك الظروف القاسية. وما حــدث منذ أيام قليلة لا يــزال يُحفظ زهيرًا، ويجري على لسانــه ما يستحقه أبو جهل من شنيع الصفات، كلما ذكر الأمر...

إن مــا فــي أعماق زهير ليســ الغضب من محاولة أبــي جهل ردّ ما يحمله من زاد إلى أخواله، فتلك الشجّة البالغة التي نالها وجه أبي جهل كان يمكن أن تطفئ غضبه.. زهير في داخله يعرف أن أبا جهل يجب أن

يهزم، وأن الذين فــي الشعب يجب أن يتحرروا من قيد الحصار الآثم، لكنــه لا يجد الطريق إلى تنفيذ ذلك. وهذا مــا دفعني إليه: يا زهير... أمــا، والله، لو كانوا أخــوال أبي جهل، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه، ما أجابك أبدًا.

كـم كنت واهمًــا، عندما حسبت أن زهيرًا سيحتــاج إلى الكثير من أمثــال تلك العبــارة قبل أن يقول: فمــاذا أصنع، وإنما أنــا رجل واحد! واللّه، لو كان معي آخر لنقضتها.

وقدمت إليه الآخر.. أنا.

ولم يسألني أبدًا عن غايتي من ذلك.. ولو أنه فعل لآلمني، وللمته.. لكننــي، وفي غمرة إحساســي بنشوة النجاح، لم أنسَ ضرورة التوثق، وحسن الإعداد.

وعرضــت عليه أن نشرك ثالثًا في أمرنا، فأشار بالمطعم بن عدي؛ لما له من سوابق في نصرة الحق.

ولم يخيب المطعم رجاءنا، لم يحتج إلى أكثر من عبارات قليلة، ملأى بالحماسة، والإيمان بصحة الأمر وصوابه وضرورته: يا بن عدي.. أرضيت أن يهلــك بطنــان من بني عــدي بن عبد منــاف وأنت شاهــد ذلك، موافق عليه؟! أما، واللّه، لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا.

وهكــذا أصبحنــا ثلاثــة، مسلحيــن بالحــق والحماســة والمنطق، والرغبة الجامحة في إتيان الخير ونبذ الشر.. ولم يكن الثمن أكثر من الجراءة على حاجز الخوف والوهم الخادع.

ووعدنا المطعـم أن يسعى لدى آخرين يشـدون أزرنا، وكان اتفاقًا بيننا أن نلتقي صباح غد جميعًا، في خطم الحجون، بأعلى مكة.

* * *

١١ - حزيران - ٦١٩م

لـم أتوقع أن يحـدث ما حـدث بهذه السرعـة، وبتلـك البساطة.. يالأنيـاب الندم التي تنهشني، كلما فكرت في أن ما تمّ اليوم كان يمكن أن يتـم قبل ذلك بكثير، وأن تلك الخطوة التي ولدتها الجرأة والمبادرة والشجاعة، كانت تستطيع أن تتقدم أكثر من سنتين! كم هو هائل الفرق بيـت التردد والحزم! فرق لا يدركه إلا من أتاحت له الأيام المرور بمثل تجربتي.

لـم يتسنَّ لـي أمس كتابـة مذكراتي، فقد أويت إلـى مضجعي عند الفجر، وكان علي أن آخذ قسطاً من الراحة؛ لمواصلة ما كنا قد بدأناه. والآن سأشرع في تدوين أحداث أجمل أيام عمري وأحفلها...

عندمـا توجهـت إلى خطم الحجـون، كان يخيل إلـي أنني سأمكث طويـلاً في انتظار زهيـر والمطعم، ومن قد يكـون معهما، فقد غادرت فراشـي، والغسق لا يزال يلفّ طرقات مكـة. ولما شارفت المتعد لاحت لـي عن بعد أشباح رجال ثلاثة. وعاجلني شعور بالامتعاض، فلم يرقني أن يرانا أحد مجتمعين قبل تنفيذ ما عزمنا عليه، وهجس في نفسي أن أعـود من حيث أتيت، لولا أن رأيت الرجال الثلاثة يتجهون إلي، وكأنهم يروننـي. وسرعان ما اكتشفـت أنهم المطعم وأبـو البختري وزمعة بن الأسود، ثم لم يلبث زهير أنّ وافانا.

لم يطل الحديث بنا، فقد كانت الكلمات معدودات، لم تتعدَّ الاتفاق على وجوب المجاهرة بنقض الصحيفة، وإعلان ذلك على الملأ.. كان كل منا موقنًا أن الكثيرين ينتظرون صاحب الخطوة الأولى؛ ليكونوا على آثاره. وقررنا أن نباكر الحرم غدًا.. ولما كان زهير حديث عهد بمواجهة أبي جهل، فقد اتفقنا على أن يبدأ هو الإعلان عن نقض الصحيفة.

مضت سحابة ذلك النهار، والهواجس تأخذ بي كل مأخذ.. كنت شديد الاضطراب والانفعال، فلم أسغ طعامًا ولا شرابًا، ولم أصب من النوم إلا غفوات قصيرة متقطعة، وكانت تأخذني خفة، وكأنما يطير بي جناحان لا أراهما.

كان موعدنا الصبح في البيت العتيق. ولما وصلت الحرم، بصرت بأبي جهل وأبي لهب في مجلسهما، بعد أن طافا بالبيت كعادتهما.. ورأيت زهيرًا على بعد يطوف جادًّا. وكان الناس بين طائف وجالس ومضطجع.. وجعلت أجول بعيني في أرجاء المكان، باحثًا عن المطعم وصاحبيه، فألفيتهم قد توزعوا في أرجاء البيت، كما تقتضي الخطة، فقد رأينا أن تبرز أصواتنا تباعًا، من أماكن متفرقة؛ لتبدو على غير اتفاق.

وعلى الرغم من أنني كنت أتوقع أن يرتفع صوت زهير في كل لحظة، فقد أجفلت حين دوى نداؤه، حيث بدا لي كقصفة رعد أخمدت لغط الناس:

يا أهل مكة...

واستحال اللغط إلى غمغمة لم تلبث أن أفضت إلى سكون.. واشرأبت الأعناق، وتطلعت العيون، تستكنه النداء الهادر: يا أهل مكة...

كان صوت زهير ثابتًا قويًّا واثقًا، أسر الأسماع: يا أهل مكة.. أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟!

وعلت غمغمة، وتلفت الناس لتواجه العيون بعضها بعضًا، أو كأنما لتبصر بعد عمى أعوام ثلاثة ... وعاجلهم زهير كالقضاء المبرم، مصعدًا الموقف مباشرة إلى نقطة الذروة؛ ليستغل الذهول الذي أحدثته الضربة المباغتة: والله.. لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

هب أبو جهل مغضبًا مهتاجًا، منتفخًا كيدًا، مستطيرًا شرًّا: كذبت، والله، لا تشق.

واختلط صوتي بصوت زمعة بن الأسود، وهو يشقّ طريقه بين الناس إلى حيث أبي جهل، ويلوح بيده صارخًا في وجهه: أنت والله أكذب، وما رضينا بها حين كتبت.

وصحت من مكاني: وما رضي إلا قليلون، لكنكم استخدمتم نفوذكم؛ لترغموا الناس على مظاهرتكم.

وتابع أبو البختري: صدق زمعة، وصدقت، لا نرضى ما كتب فيها.

أضاف المطعم بلهجة جازمة، كمن يصدق أمرًا قد أبرم: صدقتم جميعًا، وكذب من قال غير ذلك...

واستشاط أبو جهل غضبًا، لكنه كان غضب المفلس الخزيان، فقد اتجه الناس إلا أقلهم إلى حيث انطلقت الأصوات، وانضمت التجمعات بعضها إلى بعض، مشكلة سيلاً يتدفق في اتجاه واحد...

تبـدّد صـوت أبي جهـل، في خضـم الأصـوات.. وبصعوبـة كبيرة أفلحـت فـي التقـاط كلماته، التـي راحت شرذمـة ممن حولـه يهزون رؤوسهـم موافقين علـى وقعها: هذا أمر قضي بليـل وأبو طالب بناحية المسجد...

وطويـت صفحـة أبي لهـب وأبي جهـل، وانطفأ الصوتـان ببساطة كالمعجزة.. استطعت، بعد عناء، الوصول إلى زهير.. تعانقنا، وهممت أن أقول له:

أنـا ماضٍ إلى تلك الصحيفة الملعونة؛ لأمزقها.. عندما علت جلبة النـاس، واندفع المطعم يجتذب الصحيفة عـن الستار المغبر، ويفض غلافها وسط الجموع المهللة.. ويمزقها...

* * *

١٢ – حزيران – ٦١٩م

لم أستطع الاجتماع بأصحابي الأربعة بعد، فقد ألهت الفرحة الناس عـن كل شـيء، وراحت الصفقـات المبدئيـة تعقد في البيـت، وأكوام الطعام والثياب تحمل إلى أبيات آل هاشم، وآل عبد المطلب، وتقاطرت النعميـات بلا ونى، فأبرم أكثر من زواج في ساعات ذلك اليوم الحافل الذي لا ينسى.

عندمـا استيقظت هذا الفجـر، كانت نشوة حلم مـرّ بي، أو مررت بـه، في سويعات الليل، لا تزال تحمل إلى أطرافي وروحي خدرًا لذيذًا.. تحسست يدي الخشنتين، وابتسمت.. كيف أمكن أن تكون هاتان اليدان

يــدي امرأة! امرأة تأتي بعدي بألف وثــلاث مئة وواحد وثمانين عامًا؟!
امرأة تلبسني وتحتويني.. تعيرني يدها ولسانها، لأكتب لقوم لا أعرفهم،
في زمن لا أعرفه، ما دار هنا ذات يوم.

امرأة! هل تتغير في ذلك الزمن النساء؟!



فتاة من كوسوفو

رأيت صورتها في معرض للتصوير الضوئي، شقراء لطيفة القسمات، ذات سنوات عشر، وحجاب سماوي صغير، هو السبب في كل المآسي التي تختزنها نظراتها الطفلة.. غصت في بحار عينيها الرمادية الساجية.. كانتا تشفان عن كنوز من الحكايا.. وقفت أمام حزنهما الأبكم بإجلال وخجل.. فأحزان الأطفال تلجمني.. تملؤني مرارة ووجومًا.. تدفع بي إلى الهرب من عجزي ومسؤوليتي عن كل ما هو جميل وفاضل وطيب في هذا الكون.

خيَّم المساء.. وفي المساء أحسّ بخوف يشلني.. الحرش الكئيب، وجدران الخيمة الرمادية ذات الشرائط الزرق، وعلب الأطعمة المنضدة في الزاوية، وصرة ملابسنا التي يضطجع فوقها أخي الرضيع، والمصباح الأسطواني المعلق، ووجه جدتي، الذي لم أعد أذكر كيف كان بلا دموع، وصور حزينة من كوسوفو.. أتمسك بها برغم ما تبعثه في من ألم.

أبي الذي لوّح لي وهو يخرج من باب الحديقة راكضًا، بقميصه الأصفر ذي الكمين القصيرين، ورشاشه المشهور، ولم أرَه بعدها قط. وأمي.. ويغوص في صدري شيء كالسكين.. أحقًّا لم تعد هناك من أدعوها: ماما!

وأنتفض مذعورة: لا.. إنها هناك.. بطريقة ما ستكون هناك، في بيتنا.. تكوي سراويل أبي قرب النافذة.. تقلي البطاطا في المطبخ، وأنا أقف وراءها بصحني، فتضع فيه بعض الأصابع، وأنفخ فيها لتبرد، فآكلها.. إنها هناك تفتح الستائر عند الصباح، وتنحني فوق سريري تقبلني، وتقول: حبيبتي.. هيا.. وقت المدرسة.. لم لا تكون الآن أمام الباب تنتظرني حاملة محمدًا، وطعام الغداء في أوانيه ينتظر على المائدة!

لكنها ماتت.. هي الآن ملقاة في مكان ما، شعثاء معفرة ملطخة بالدماء.. ولا تستطيع أن تجيبني إذا ناديتها...

وأهتف، والدموع تخنقني: أمي.. ماما.. ماما...

وأحس ذراعين تحتضنان جسدي.. دافئتين، حنونين، لكنهما ليستا ذراعيها، أستسلم لذات الذراعين الحنونين، وأسمع صوتها من فوق رأسي: الخنازير.. النجسون.. يريدون إبادتنا...

وأظل أبكي بإصرار؛ لأتشاغل عن تلك الكلمة الرهيبة.. وجدتي تبكي.. وجاراتنا في الخيمة يبكين. بينما يغادر بعض الرجال وهم يشيحون بوجوههم؛ كيلا تفضحهم تعابيرها.

وينطلق صوت المذياع الصغير، الغارات تتوالى على كوسوفو.. ويضيف المذيع كلامًا آخر، يضيع في موجة من لغط غاضب، وتصيح امرأة من بعيد: يا ويلي! لم يبقَ في المدينة شيء...

يسقط في صدري شيء ثقيل حاد.. بيتنا.. خزانتي.. بنياتي الأثيرات: الشقراء التي انفصل رأسها، فثبته أبي بالغراء.. والرضيع

الأصلع ذو الأطراف المرتخية والعينين المغمضتين.. وقطار محمد الذي أخبئه عندي ريثما يكبر.. والدب ذو الدراجة...

فجأة، وكما تهب الريح في الليل، يقتحم الخيمة شاب يحمل رشاشًا.. نتراجع مذعورين، فيصيح مهتاجًا متقطع الأنفاس: إلى الدغل.. إلى الدغل.. بسرعة.. احتموا بالأشجار.. وتعمّ الفوضى.. تهب جدتي ممتقعة متعثرة بثوبها.. تنحني بجسدها النحيل لتخطف محمدًا الذي أيقظه الصراخ.. تحكم غطاء رأسها، وتناولني بطانية صغيرة، تلقي بها، كيفما اتفق، بين ذراعي، فأجهد لإحاطتها بذراعي، ثم أضمها إلى صدري، مشرئبة برأسي من فوقها؛ لأتبين طريقي، ثم أهرول بين الجموع لاحقة بجدتي...

أقدام متصادمة متعثرة تدوس قدمي من الخلف.. تنخلع فردة من حذائي، فأفقد توازني، وأقع أرضًا، ثم أنهض ذاهلة عن البطانية، وأعيد حذائي إلى قدمي بعد محاولات عديدة أحبطها التدافع والاضطراب. وأتفقد جدتي، فأراها على مسافة قصيرة متوقفة تبحث عني بعينيها، وهي تشد محمدًا الباكي إلى صدرها.. ألتحق بها، فتهتف مستنكرة: أين البطانية؟!

وألتفت إلى الوراء مذعورة: .. وقعت.. وتصفعني بثورة بائسة، ثم تضيف متوجعة مشفقة: يا غبية.. ستموتين من البرد.. وتتركني وأنا أبكي، وتنكص عائدة أدراجها، وسط الجموع المندفعة إلى الدغل.. وأراها من خلال دموع القهر والشقاء في عيني، وهي تنحني لتلتقط البطانية، وتنفضها من الغبار بيد واحدة كليلة، ثم تحتضنها مع أخي، وتعود إلي، وقد اختفى كل أثر للثورة من عينيها.

عندمـا استيقظـت كان ظهـري مثلجًـا، وثمة ألم فـي كل شبر من جسدي. لقـد أمضينا الليل في الغابة، على جـذع ضخم مستلق. كانت جدتـي تغفو مسنـدة ظهرها إلى أصل شجرة عتيقـة، وقد فغرت فاها، ولفاعها الصوفي الأبيض يحيط برأسها وعنقها وكتفيها.. وفي حجرها مـا زال محمـد يغفو.. أما أنا فكنت جالسـة بجوارها، وقد ملت برأسي إلى فخذها، والبطانية تحتضننا جميعًا.

كان أحدهم يصنـع الشاي في برميل نظيف، فوق حجارة تبرز من بينهـا أغصـان جافة، تلتهمها النـار. وكانت هناك سيـدة تحمل كيسًا مـن النايلـون ملآن خبزًا، وأخـرى تحمل كيسًا مـلآن أكوابًا من الورق المقـوى، عليها صليب أحمر، فوق أحـرف زرق. ونسجت هذه المشاهد حلمًـا صغيـرًا.. وحركت شعورًا بالجـوع لم أكن أفطن إليـه.. سأتناول شايًا ساخنًا.. وأحسست بشيء من الراحة...

كـوب الشـاي الورقي، لا يـكاد يحجب حـرارة السائـل القاتم عن راحتي، فأتجلد لها، وأركز عقب الكوب على ركبتي العارية، لكنه يلسعها، فأسرع برفعه من جديد، وأظل أنقله بين كفي الباردتين، حتى بت أطيق إبقاءه في يمناي، كما اعتدت أن أفعل، عند ذلك فرغت لجدتي، ورحت أراقبهـا تلقي بقطـع الخبز الصغيرة في كوبها، ثـم تلتقطها بإصبعيها بخفـة، وتنفـخ فيها، ثـم تدسها في فم محمـد فيلتهمها بنهـم.. وكان سعيـدًا، يضحك ويرفس برجليه، حتى خشيـت جدتي أن يندلق الشاي عليهما، فتبرعت بالإمساك بكوبها، حتى تفرغ من إطعام الصغير.

حملت الكوبيـن الورقيين لإلقائهما في برميل غير بعيد، خصصوه لجمـع القمامة، فاعترضني صبي فـي سترة بنية متهدلة، كأنما قد نام

وهو يلبسها، كما تقول أمـي، ونظرت إلى ثوبي المغضن، ورحت أمسده براحتـي.. لاح لـي وجه أمي الـذي يعذبني، وتجمد كل مـا في، وضرب ركبتـي جسـم صلب، حتى كـدت أجلس فـي مكاني.. في هـذه اللحظة واجهنـي الصبي، كان يبتسم، وقد حاذى وجهـه قرن طويل من أكواب الشاي المستعملة.. نظر إلي، ثم قال بتردد، مشيرًا بعينيه إلى كوبي: لا تلقي بهما.. نصنع منهما أشياء جميلة...

مـددت يـدي بالكوبين إلى الصبـي، فنظر إليهما، ثـم إلي، وقال: اغسليهما أولا، ثم تعالي أعلمك.. وجلس حيث هو متربعًا فوق العشب.. ظللـت واقفة وقد ساورني شـيء من الامتعاض، وقلـت: إن أعجبني ما تصنع غسلتهما، ثم صنعت مثله.

نزع قبعته وألبسها ركبته، ثم وضع أكوابه أمامه، وانحنى على واحد منهـا، يشقق حافته بأصابعه شقوقًـا متساوية الأبعاد متساوية الأطوال ما استطاع.. ورحت أرقبه بفضول، وهو يلوي الحواف المهدبة، مدخلاً الأهـداب على التوالي في الشقوق.. وفي لحظة صم الآذان أزيز مروع، ودوى انفجـار هائل.. وتبعثر كل شـيء.. وانسكب على الحرش كله لون أسـود.. أخضر.. وملأ الفـراغ كله فحيح متطـاول.. لا شيء.. لاشي.. لاش...

تسلـل الضوء من بين جفني الحارقيـن الشائكين.. وأحسست كأن فوقـي ثقـلاً يقيدني بقوة، ويمنعنـي من الحركة.. كوبـاي.. أين كوباي الورقيان؟.. أين الصبي.. ؟ قال: إنه سيعلمني كيف أصنع شيئًا جميلاً.. أيـن أنا.. فتحت عيني مستطلعة.. الأحداث تستفيق متثاقلة.. الحرش،

وجدتــي، ومحمد الجميل يرفس ويضحك، والصبــي ذو الأكواب يشرع في الجلوس بأكواب الورق المتداخلة.. والانفجار الفظيع...

وانتابني الذعر.. ووجدتني عاجزة عن الصراخ أو الحركة.. رحت أنتحــب باستسلام وعجــز.. أخذتهم موجة القذائــف.. الموت.. فجأة صــرت أعرفه أكثر من كل شيء.. لا بديل من الهرب، بأي طريقة كانت سأهــرب.. الآن سأهــرب.. لا أريد البقاء هنا ولا هنــاك، ولا في مكان يعرفه الموت، أو أعرفه أنا...

أحسســت بيد مضطربــة حنون فوق جبينــي، كان وجهًا لا أعرفه.. شابًّــا في لباس أبيضــ.. أردته أن يكون الصبي، فلــم أنظر إلى وجهه، بــل رحت أتفقد قرن الأكواب في يده.. وأستعيد مناظر أصابعه البارعة وهي تشقق الحواف وتلويها. و ... انحنى الشاب مقربًا وجهه من وجهي، وابتسم قائلاً: سيأتي والداك الآن ...

والداي!

عرفت أنه يكــذب علي.. عرفت أنني.. ضائعــة، جريحة، وحيدة.. أغمضت عينــي، ورحت أغوص إلى عالم حار ضاغط مظلم، لا جدران ولا أرض ولا سماء له...

لــم يكن في وسعــه أن يفعل شيئًــا.. فراح يمسح دموعــي بأصابعه العارية المثلجة العاجزة...



البشـارة

تلازمنــي، كالقليل مما يعلق بالذاكرة لسبب غالبًا ما نجهله، عبارة الشيخة ربّوع: «هذه البنت ستكون تقية»!

عبــارة الشيخة ربّــوع، هذه، رافقتني دون ضجــر أو ملل، في دروب العمــر المتشعبــة، وأنا أنــوء بعبء قلب لا حــدود لمغامراتــه، ولا آفاق لمراماته، وذهن متشظٍّ، رمى بي كل مرمى، حتى بت أردد بتأمل:

مِنْ كلِّ ما نالَ الفتى قدْ نِلتُه

فكانــت تتمثــل لي في أقصى حــالات الصفاء والتسامــي التي يمنّ اللّه بهــا علــى من يشــاء من عبــاده، كما تتمثــل لي فــي أقصى حالات الاهتصــار وزلزلــة الــروح المعذبة بما يحيــط بها من دنــاءات البشر وقسوة الواقع...

كنــت أحتضنها منيبة أو معجبة، أو أواجهها ساخرة متهكمة. لكنها كانت هناك، في نقطــة ثابتة من قاعدة الذاكرة والوجدان، لا يتغشاها الظــلام، ولا يطمس معالمهــا الظلام. وما أزال إلــى يومي هذا أعجب مــن تلك الظروف التي اجتمعت، فنقشت تلك العبارة في ذلك الموضع منــي، وما أزال لا أجد لثباتها ذاك مبــررًا مقنعًا، إلا أن تكون من ذلك الكلم الطيب الثابت الأصل في الأرض، الباسق الفرع في السماء، يؤتي أكله كل حين بإذن ربه.

كنــت في السابعة من عمري عندمــا استولى علي شعور بأنني أرى، وأسمع بــكل خلية من جسدي.. فقد وجدتني مزودة بعينين مفتوحتين، وأذنين سماعتين، وقدر مــن الحيوية كثيرًا ما قصر الجسد والظروف عــن مجاراته، حتى غدوت مثار شكوى لكل مــن حولي.. وما أزال أذكر كيــف كنت أعجــب من أننــي دائمة الــكلام.. حتى كنت عندمــا أمتثل للأوامر فأطبق شفتي، كان يخيل إلي أنني أتكلم في داخلي...

أقلقنــي ذلك بعض الشيء، وربما أخافني، وسألت لذاتي، فلم أجد إجابــة أشفى من: نحن نتكلم مع الآخريــن فقط، وإذا لم يكن ثمة أحد صمتنا...

ولم تكن تلك الإجابة ما أريد، ولذلك لجأت إلى أبي، وكان المرجع الأعلى بالنسبة إلي، فكان جوابه: إنها الروح.. تفكر دائمًا.. إنها النفس الأمارة بالسوء...

وعندمــا استوضحته معنى الأمارة بالســوء، أدركت أنه، هو الآخر، لم يفهم مرادي. فالحديث المستمر الذي يقلقني لم يكن سيئًا دائمًا.. إنــه كالحديث العادي، وأنا بنــت طيبة، أكثر أحاديثي لا تمت إلى السوء الذي ذكره والدي بصلة...

لــم يضايقني كثيــرًا عدم الحصول علــى إجابة شافيــة، ولم أعد للبحث عنها، بل رحــت أتسلى بأحاديثي الداخلية، وأعجب من قدرتها علــى الاستمــرار والتواصل حين يتعب لساني، ويــكلّ جسمي، بعد نهار طويــل مــن الحركــة الدائبــة، ولا سيما في نهــارات الصيــف الطويلة المرهقة.

كنـا قد اعتدنا قضاء بعض الصيف فـي بلدة (الباب) القريبة من (حلـب)، حيث أخوال أبي الطيبون، يرحبون بأبناء أختهم التي كان قد اختطفهـا الموت في ريعان الشباب. وكنا – نحن الأحفاد – في موضع الصدارة من ذلك الترحاب والتدليل والإكرام.

كان أحب أوقات النهار إلى قلبي، في تلك الزيارات الصيفية، وقت الغـروب، حيث تقوم النسـوة بغسل أرضية الـدار المفروشة بالإسفلت الرصاصـي الصقيـل، ويفرشنهـا بالحصـر (البابيـة) المشهـورة، والوسائد المحشوة بالصوف بسخاء.

وكانـت أمي -رحمها الله- في ذلك الوقت تمتح الماء من بئر الدار دلـوًا إثر دلـو؛ لتغسل بعناية وجوهنا وأيدينـا وأرجلنا، وقد يتطور ذلك إلـى حمام كامل بالماء البارد، تتخللـه احتجاجاتنا وتوبيخاتها، بسبب كمية الأوساخ العالقة بأجسادنا الصغيرة. وكانت تلك المعارك اليومية الطريفـة تنتهـي بجلسة هانئة علـى الحصير في ثيـاب نظيفة، ونشوة صمت ما بعد التعب.

وبينمـا تتضوع رائحة الطعام اللذيذ الـذي يكتمل نضجه استعدادًا للعشاء، ينطلق من المذياع الضخم، الجاثم بمهابة فوق إفريز الشباك العريض، صوت «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد»، كما كان يفرض علينا أن نقول، مجلجلاً يتلو قرآن المساء. بينما هذه الأمور تجـري، تحت رقابـة الشمس المتثائبـة، التي تسحب مـلاءة النور عن أعالـي الجـدران شيئًا فشيئًا، لتلتحفها استعـدادًا للنوم، كما كان يحلو لـي أن أتصور، بينما كل ذلـك يحدث يتهالك جسمـي، ويثقل جفناي،

وينطلـق الحديث الداخلي طافيًـا تارة، وغائصًا أخـرى، في تضاعيف أمواج صوت «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد» وعبارات النسوة المقتضبة، المسروقة في الزمن الفاصل بين الآيات، عن الطعام الـذي قد يكون نضج، وهدوء الأولاد الـذي يخشين أن تحسده أعينهن، ووجوب تفقد القمح المسلوق المفروش على السطح...

كثيـراً مـا كانت أحاديثـي الداخليـة المتوثبة تدور حول مـا يقرؤه «المقرئ الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد»، وكنت أفهم ما أفهم بطريقتي الخاصة، بعـد أن يئست من تفسيرات الكبار، أو لم تعجبني، أو لم ترضِ خيالي، حتى قررت بشكل جازم عدم الاستماع إليها، وذلك عندمـا قـال «خالو الشيخ طيب»، كما كنا ندعـوه: إن الأحد عشر كوكبًا والشمس والقمر التي سجدت ليوسف هي إخوته وأبواه.

كان خيالـي يجـد متعة في تصـور الكواكب والشمـس والقمر وهي تنحنـي لذلك الصديق الجميـل. فأنا، وإن كنت لـم أتوصل إلى تصور حسي مقبول لكيفية سجود هذه الأجرام، فلسان حالي يقول: ولم لا ..! أو لا يستحق ذلك؟ ثم .. كيف يسجد الأبوان لابنهما؟

فـي مثل هـذا الوقت مـن كل يوم كانـت الشيخـة ربّوع تأتـي، ولم تستـرعِ انتباهي قط، على الرغم من حديث الجميع عن تقاها وورعها، وكراماَت أبيها الذي لا تحرقه النار، ولا يخترق جسده الرصاص! كانت مثـل كثيـرات أراهن، عجـوزًا ضئيلة، تلتحـف السواد، وتسيـر متوكئة علـى عصا معوجة جافة.. كانوا كثيرًا مـا يدعونني إلى تقبيل يدها، أو يدعونهـا إلى قراءة آيـات من القرآن على رأسي؛ عسـى أن يعمل ذلك على تهدئتي والتخفيف من عرامي الصبياني، الذي يضيقون به.

وذات غـروب، كنت فـي جلستي الممتعـة المعتادة، وقـد استندت بظهـري إلى وسادة قاسية، ومددت ساقـي المتعبتين، وثبت عيني على قطيطـة بيضاء شريدة، تجثـم فوق الجدار المواجـه، كان قد قيل لي: إنهـا الوحيدة الباقية من ست قطيطات ولدتها أمها تحت درج السطح، ثـم التهمتهـا واحدة إثـر أخـرى!! وكنت، بعد مضـي أيـام طويلة، قد تخلصت من حالة الاشمئزاز والفزع المروعة، التي كانت تنتابني، كلما وقع بصري على هذه القطيطة. والحق أنني لم أكن أنظر إلى القطيطة تمامًا في ذلك الغروب، كنت فقط أتخذها موقعًا أثبت بصري عليه، إذ كانت أمور كثيرة أخرى تشغلني.

فثمـة اليوم، إلى جانب الطعام اللذيـذ، خبز شهي، يخرج الآن من التنور كعكات طازجة سمراء، تفوح منها رائحة القمح والنخالة الذكية، وما كان الوقوف أمام التنور، كعادتي، ليفوتني، لولا ذلك الألم البغيض الـذي يصِلّ له عظم ساقي المجهدتيـن بجريي طوال النهار في الأزقة القريبة الظليلة والمشمسة، والتنقل بين دور الأقارب المتلاصقة، للعب حيث أجد أولادًا.

وكان إلـى ذلـك أيضًـا «المقرئ الشيـخ عبد الباسـط محمد عبد الصمـد»، الـذي كان قد قـرأ لتوه بصوتـه الرخيم المنغـم: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ وكنـت لحظتئذ أحاول تصـور السريان مقارنـة بزحف الأفعى.. فقـد كنت، مذ ولدت، بنتًـا للطبيعة، عشت خمس السنـوات الأولى من عمري فـي مزرعة عتيقة معمرة الشجـر والأسيجة والمساكب، تعرفت فيها أسرار الطبيعة، نباتاتها وحيواناتها وحشراتها، فأغنت معلوماتي، ورسمت خطوط خيالي...

كانـت صورة الليـل الذي يسـري تستغرقنـي.. كان سـوادًا شفافًا كمـلاءة هفهافة، موشاة بالنجوم، تسحـب في السماء رويدًا، تحف بها أنغام النسيم المنعشة، التي تدغدغ سكينة الليل وسجوه.. وبينما أنا في ركاب ذلك السـاري الساحر، الذي امتلك علي مشاعري، انطلق صوت الشيخـة ربّوع من مكان قريب، من مجلسها علـى الحصير نفسه: هذه البنت ستكون تقية.

انتزعتنـي العبارة من عالم أحبه. ولكننـي، لسبب ما، لم أمتعض. وعندما حولت بصري إليها، أدركت أنها كانت تتأملني في شرودي.. ولا أدري مـا الذي أوحى إلـي أنها كانت تفعل ذلك منذ وقت طويل.. كما لا أذكر تمامًا لماذا استخفني الفرح لهذه الشهادة، لعله موقف أمي، التي رمقتني باعتزاز مكتوم لم يخفَ علي، بل ذكرني بما لا تفتأ تقوله لي في لحظات الصفاء: أنت طيبة، فلماذا تتشاقين، وتسببين لي المتاعب؟!

ولـم أستطـع قط إجابـة ذلك السـؤال، ولكنني فـي كل مرة، كنت أعتـزم الالتزام بما يرضيها، ثـم أجدني أعيد الكـرّة، لسبب أو لآخر، كأن أنسى أو ..!

لقد مرت سنون طويلة على تلك العشية، التي خلدتها كلمات الشيخة ربّوع -رحمها الله- فإنني ما زلت وسأبقى، إن شاء الله، أتفقد دلالة تلك العبارة، وأتعهد معناها الموحي والملهم في الوجدان والواقع، وأستحضر ظلالهـا التي امتدت سخية مباركة على واحـات الأيام وصحاريها، دون كلـل كلما نادتني بارقـة توسمت فيها خيرًا في طفـل، تتيح لي الظروف لقـاءه أو حـواره، وكلما اقتضى حال مـن أحوال هذه الدنيـا كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

قابيل يلحق بهابيل

واجـه الشمس ثانيــة.. كانت تعلو في الأفق البعيــد.. نظر إليها بلا مبالاة، ثم بحسرة.. كانت تمنحه الارتياح.. كانت تملؤه نشاطاً...

التفت إلــى الجثة المرمية هناك.. الريح تحمـل إليه رائحتها التي غدت كريهــة.. وعاوده الألم البغيض.. لا مهرب من المزيد من الألم.. يداه هاتان صنعتا ذلك الألم.. وحوّل عينيه عن يديه المتصلبتين.

– لو أن هابيل لم يعتدِ علي.. كم كان قاسيًا! ...

وأحس بإرهاق شديد.

– وهو الآن أشد قسوة ...

واستشعــر شيئًا كالسهم الناري يشق صدره.. لو أنه يضمن أن أخاه المشلول الأبكم ذاك لا يسمع، إذًا لصرخ ملتاعًا معلنًا ألمه...

نهض، واقترب من الجثة.. ليس هذا هابيل الذي يعرف.. ودار حوله باحتراســ، فقد توقظه حركتــه، ويعود إلى لعب ذلك الــدور البغيض.. وبلهفة هتف: فليعد...

واستدرك: على أن يظل بلا حراك...

ليت هذا يحدث، وسيحمله على عاتقه دائمًا...

الوجـه كما كان بالأمس.. بل لقد ازداد سـوءًا.. الجثة كلها، هابيل كله يزداد سوءًا.. والحق أنه لم يبقَ ثمة هابيل.. وتلفت حوله مذعورًا.. وعاد يجثو إلى جوار أخيه المسجى بلا حراك، مدّ يده يلمسه.. إنه بارد كالأرض...

مـاذا يفعل الآن؟ مـا المخرج من تلك الحالـة البائسة؟ كيف صار هابيـل هكذا؟! لقد أراد أن يكف أذاه فقـط.. أراد أن يجعله بلا حراك فقـط.. يجـب ألا يبقى هكذا.. يجـب أن يعود كمـا كان.. لا.. ليس كما كان.. فقط يجب أن يتحرك، ويكلمه.. ولكنه لا يفعل.. هل كانت ضربته أقسـى ممـا أراد.. ما كان بالإمـكان أن تكون أقل قسـوة، فهابيل قوي، ولا بـد من ضربـة قوية للتأثير فيه.. كان الأقوى فـي كل شيء، حتى إن قرابينه كانت تقبل دون قرابيني.. كان يدعي دائمًا أنه الأفضل.. وأحس قابيل لحظة قصيـرة بالغضب.. وتململ، وقد تملكـه ذلك الحقد المر والتمرد الأعمى اللذان يعرفهما.. لم أعد أستطيع احتماله.. لم أعد..

وسكـن الغضب فجأة وهو ينظر إلـى الجثة الهامدة.. ولكن ما كان يجـب أن أكون بهذا العنف وهذه القسـوة.. وفار شيء كالنار في رأسه، وهـب يذرع التل مهتاجًا، ثم اندفع إلى عمق الكهف، حيث أطلق لصوته ودموعه العنـان.. هكذا كان يفعل دائمًا هو وهابيـل، عندما يفور شيء فـي رأس أي منهمـا.. وارتفع نشيجه حتى أرعبـه الصدى المدوي، في الكهف الرطب الموحش.

فقد رغبته أو قدرته على رفع صوته بالبكاء، فخرج إلى جثة هابيل.. كانت الشمس قد امتدت فوقها...

– هل يستيقظ الآن! كانت الشمس توقظه.. ليتها تفعل الآن...

انحنـــى، وقلـــب الجثة برفـــق ورعب.. عينـــاه مفتوحتـــان، والشمس تنسكـــب فيهمـــا.. لكنهما ليستا عينا هابيل اللتيـــن يعرف... وتمتم: كم كانتـــا براقتيـــن صافيتيـــن جميلتين.. كلـــه كان جميلاً.. وقويًّـــا.. أجل، قالهـــا وهـــو يمعـــن النظر في عينـــي أخيه، كأنـــه يختبر سكونـــه الأبدي المخيف، وأضـــاف: وكان قادرًا، يجد المخرج من كل الشدائد.. النار، الفيضانات، الحرائق، الوحوش.. كان أبرع وأقوى مني.. وخفض صوته بالعبارة الأخيرة، فهو لم يصدق بعد أن هابيل لن ينتصب في أي لحظة كانت ليعود كما كان.

وشملـــه الذعر.. لو أنـــه نهض الآن لسامني ســـوء العذاب.. وساوره شيء من الأمن المر.. لكن نظرة إلى الجثة الهامدة أعادت إليه الخوف والغم ...

– كان يمكن أن أحتمله قبل أن أفعل به ما فعلت، أما الآن ... !

ومثلت به هواجسه، احتـــار أي الوضعين أفضل: أن يعود هابيل إلى سابـــق عهده فينتقم منه، أم يبقى هكـــذا فينجو هو من الانتقام، ويفقد أخاه! كلا.. الأمـــران لا يطيقهما. واكتشف أن ما كانت عليه الأمور قبل فعلته تلك كان الأفضل، على الرغم من كل ما كان فيه. وأدرك مفجوعًا أن ما كان لن يعود، وغلبه الخوف من أخيه ومن فعلته.. ما العمل الآن؟ لا بـــد أن يبقـــى هابيـــل هكذا.. ولكنـــه لا يقوى على احتمـــال الألم الذي تسببه له حالته.. أي دوامة تلك التي وضع نفسه فيها! أي ألم قاتل ذاك الذي تجرعه إياه يداه!

وانتصب ضاربًا رأسه بكلتا يديه: أيها الرأس القذر، يا من دفعتني إلى فعل ما فعلت، لن تحل أبدًا محل هابيل.. لن تستطيع ذلك.. لو كنت قادرًا على تقديم الخير إلي لما جعلتني أفعل ما فعلت.. وتلفت حوله، كانت السفوح البعيدة المبتورة القمم تتوالى بوحشة، مقبضة إلى ما لا نهاية، والغابات الداكنة عن يمينه تنغلق على الأخطار التي ترعد الفرائص، وتغرس في النفس الوحدة والضياع...

وفجأة انطلقت من ورائه أصوات منكرة جمدت الدماء في عروقه.. كانوا يزحفون صاعدين إليه.. النمور الحديدية المتوحشة، والضباع القذرة الجوعى، والأفاعي اللئيمة الرمادية الرهيبة...

ولم يكن أمامه ما يفعله.. لا مهرب، لا منجى.. واندفع، كما كان يفعل أمام كل خطر، نحو هابيل، ركض إليه بكل قوة بساقيه المرعوبتين.. الآن سينهض هابيل.. كما في كل مرة، لا يمكن أن يتخلى عنه...

انهض يا هابيل... أخـ ...

ذبحته الكلمة قبل أن يتمها، ولكنه كان قد نسي كل الكلمات ما عداها، ومد صوته بنداء معول لم يسمعه سواه: أخيـ ...

وارتمى على الجثة الهامدة يحتمي بصدى ذكرى تلفظ آخر أنفاسها.. ونظر إلى الأعداء يقتربون أكثر عددًا وأثبت خطًّا.. وحمحم متوسلاً يائسًا: سيدركوننا.. وهزه بعنف، متوسلاً: هابيل.. انهض.. ماذا أفعل يا هابيل؟

ولم يجب هابيل ...

انتصب قابيل مستطار اللب، ونقل بصره كالبرق بين الخطر الزاحف كالموج العاتي، وجثة أخيه... وكمن يغرز خنجرًا في صدره، ويشهق شهقته الأخيرة، ركل الجثة مذعورًا، فتدحرجت باتجاه الوحوش الزاحفة. وأطلق ساقيه للريح، وهو يمسك برأسه مولولاً في جنون.. هابيل.. هابيل ...

عدت الوحوش على جثة هابيل، وتلذذت بتمزيقها، وتوزعتها مطمئنة، إذ لا حاجة بها إلى الاستعجال، فهي لن تتجشم عناء المطاردة والقتل، فالآخر لن يهرب؛ لأن جثته مرمية على بعد يسير بلا حراك ...

«لقد قتل قابيلُ هابيلَ، أما قابيلُ فقد قتله الندم».



الشاعر والشمس والقلم

عبر الواجهة الزجاجية الواسعة، بدأت عيناه رحلتهما الصباحية المعتادة، إلى الأفق المشعشع بأول خيوط النور، وهو يردد من أقاصي الروح التي يمنحها قرآن الفجر الخاشع القوة لمواجهة أعباء يوم جديد: اللهم، أنت السلام، ومنك السلام، تعاليت يا ذا الجلال والإكرام ...

نهض خفيفًا، وفتح النافذة.. عبّ في نفس عميق شاكر مستسلم وقوي عبير الصباح الذي يعشق.. هذا النفس يشعره أنه يمتلك كل ما يحب.. يمتلك روعة انبعاث الحياة، التي يتوفاها بارئها، ثم يطلقها مع شمس كل صباح حية متجددة، في صورة، تهزه حتى النخاع، عن ذلك اليوم الذي لا ريب فيه حقًّا وصدقًا، وكما يرى ويسمع ويعي كلما أشرقت شمس يوم جديد. ويمتلك النسيم الآتي من بعيد.. من حيث لا يدري.. من الصدور الفرحة والحزينة، من الشجر في السهوب والسفوح والوديان، من المحار في ظلمات البحر، من العصافير التي تغدو خماصًا وتروح بطانًا، من خفق أشرعة السفن العائدة والمسافرة. ويمتلك النور الوليد النقي الواعد بالعطاء والحياة.

الفوضى الشاعرية اللطيفة تضفي ألفة على الغرفة، والقهوة لا تزال تنتظر الرشفة الأولى، والقلم يبدأ، بين أصابعه المرهفة، مقدمة مقطوعة هذا الصباح.

راح يبادل رفيق الإحساس غبطة اللقاء، ويروي عطش الروح المبدع إلى لذة المشاركـة ونعمى الود، ويسمع ... إنه يسمع حقًّا حديث القلم: أحبك.. لن أخذلك أبدًا.

يدخلان معًا عالم الروح، يحس دفئه في راحته، أو دفء راحته من حولـه، يرفعه إلى خده، يمر به على شفتيـه، ويداعب به شعره، فيغمره أمــان شهي.. ويرتشف القهوة على ضفـاف الأفق.. ثم يعود إليه، فيراه مشوقًـا متشوفًا، يبتسم له كمن يبتسـم لحبيب، فيحتضنه بين أصابعه وراحتيـه من جديد.. يفـور في القلب الإحساس، وتضطرب في الروح الـرؤى، وتلهب الشعـور والخيال الأحداث والحكايـا، وتنصهر الأصابع والقلم، وتشرب الصفحات الأصداء إبداعًا معجز الجمال والكمال.

بهـذه الروعة يتماهى قلبـه الشاعر والقلم، بهـذه الروعة يلجّ خلد الإبـداع كل صباح، ليقبس من هناك ومضـات كالسحر، يترجمها قلمه الموهـوب، أنفاسًـا ترتشفها صدور المتعطشين إلـى النقاء، في سجن هذا العالم الملوث.

ترتفـع الشمس متلهفة، تنفح الذيـن يصنعون الحياة مما أودع اللّه فيها من أسرار الحياة.. تطوي الأفق إلى شرفته.. تتلبث بانتظار عينيه.. يطول انتظارها، فتلتهم المسافة المتبقية إلى قبة السماء؛ لتكون أقرب إليه، لتنسكب بصمت فوق الأرائك، وتعلو بحذر سطح المنضدة، لتتأمل بافتتـان أصابعه الملهمة، وهي تحتضن القلـم، وترسم معًا على الورق حياة فريدة، يصوغها شاعر مبدع، ويجسدها قلم عاشق.

الاستغـراق الـذي يسربل المشهد يغريهـا.. الآن تستطيـع أن تمد أناملهـا فتمس جبينـه.. وتتذكر أنها إنما اقتحمـت عليه جنته؛ لتذكره

بحاجته إلــى الراحة، بعد ساعات طويلة من الانكباب على الصفحات. وتهمّ بمدّ أصابعها الودود إلى جبينه، فتستوقفها تلك المعزوفة الخفية المتناغمــة: العينان والورق، والأصابــع والقلم، والأنفاس.. وذلك السر الذي يتجسد الآن في سمفونية باهرة، تصنع الجمال للحياة.

راحت تستمع كالمسحورة.. غرقت طويلاً طويلاً.. لكنها لم تستطع تجــاوز إرهاقه، وتوجع القلم الخفي بين أصابعــه.. لا بد أن تفعل شيئًا لتنتزعه من برزخه ذاك إلى دقائق من الراحة.

تحسســت برفق ساعديــه الراسيين على سطــح المنضدة، سكبت فيهمــا خيراتها، غمرت أصابعه والورق والقلــم.. هذا الإرهاق المقلق، يجــب أن يوضع له حــد وآتى سعيها أكلــه.. أغمض عينيــه أمام الوهج الساطع، وانتصب بظهره متمطيًا، كمن يستيقظ من نوم طويل، ثم رفع رأسه متثاقلاً، ومال بالمقعد إلى الوراء.

احتضنــت وجهه باندفــاع أحمق، فرفع كفه يتقيهــا، دون أن يفارق القلــم يمناه.. خجلت، وتوارت بظاهر كفه، فعــاد إلى وضعه متململاً.. ألقــى نظرة على كوب الشاي، ثم نحاه جانبًــا.. قلب القلم بين أصابعه رأسًا على عقب، وراح ينقر على سطح الصفحة بتوتر، ثم وضعه فوقها برفق، ونهض.

شــد قامتــه الرشيقة القوية متطاولاً، وترك نفســه يترنح قليلاً، ثم عقد كفيه بتراخ خلف عنقه، وعاد يتمطى.. ألقت نظرة على الصحائف المحبــرة.. كل هــذا الــكلام، ولا تــزال شفتــاه متلاصقتيــن! وهمست لنفسها: ما أجمل شفــاه المبدعين وعيونهم وأيديهم! وكأنما كان لتلك

النجوى سلطان على الروح الشفافة، فسرعان ما تحركت شفتاه، وهو يعود للانحناء على الصفحات يقلبها، يتفقدها، وقد غمر وجهه روح شاعري لم تستطع له وصفًا. إنه ذلك الروح الذي يتلبسه كلما رضي عما أبدع.. عندئذ تحبس أنفاسها مبهورة، وهي تراه يدخل في برزخ العشق، وتعرف أنه الآن في أحسن حالاته.. قد ينطلق الآن فيمشط الشوارع سيرًا، وقد ملأه مرح كمرح الأطفال، أو يمضي ليبحث عن الأصدقاء القدامى، أو يتفقد الأماكن الحميمة التي بُعد عهده برؤيتها، وربما تناول قطعة من الحلوى.. كأنه يكافئ نفسه على ما أبدعت.

راحت كعادتها تتابع حركاته وسكناته.. لا يزال منحنيًا على الأوراق يقلبها.. يبحث عن مواضع بأعيانها، والقلم بين أصابعه كأنه واحدة منها.. مرات عدة رفعه إلى شعره.. مرره بين الخصلات الملتوية، فكشف عن نجوم بعيدة تتوامض في ليل الشعر العنيد. كانت تلك الحركة ترافق الاستغراق في التفكير.. أحفظها ذلك.. عاد يغرق.. لا تستبعد أن يمد يده فجأة ليجر الكرسي إلى موضعه، ويغوص فيه ساعات أخرى.. راحت تتململ، ورمته بحزمة لطيفة من شواظها.. أضحكها ما فعلت.. أضغاث أيوب ... ؟ لكنها لا تريد الوفاء بنذر، إنها تريد أن تنتزعه من هذه الغرفة.. ولا صبر بعد ساعات أربع من الاستغراق والاحتراق.

يعتصر ما بين عينيه بإبهامه وسبابته مرتفقًا، مسبلاً جفنيه لحظات، ثم تعود عيناه من جديد تقفزان بين مواضع متفرقة.. سيماء الرضا على قسماته التي اعتادت وأحبت.. إنه آخر المطاف.. الدقائق تمضي، وهو يستعيد بتلذذ تذوق ما أبدع.. ما تزال تخشى أن يعود إلى

العمـل.. لجأت إلى القلم، فتطلع إليهـا مستسلمًا عبر الأصابع الرفيقة الحميمة، التـي تهصره حتى تكاد تسحقه.. كانت حياته هنا، لكنه كان يشاركهـا التلهف إلى تلـك الفسحة المشتهاة، فهو يتقـن قراءة مؤشر الإرهاق في توتر تلك الأصابع المبدعة.

أخيـرًا هبطت آخـر الأوراق على سطح المنضـدة، وضحكت وهي تـراه يعتدل فـي وقفته، ويزفر بارتياح: الحمد لله.. ثـم يستدير برأسه لاستطـلاع الوقت في ساعة الجـدار. أرادت أن تبادل القلم الابتسامة، لكنهـا لـم تره، وبحثت عنه، كان قد احتفظ به بيـن أصابعه، وهو يتجه بخفة ومرح إلى المطبخ.

وابتسمـت بحنان.. هـا هو يكتشفه.. يضعه برفـق فوق الفرن.. ثم .. هـا هـو ذا يشرب أخيرًا كوب الحليب.. وهـا هو ذا يخرج كما اعتاد، وتبقـى هـي حيث اعتادت، أمـا القلم، فلـم يعتد له مكانًـا إلا بين تلك الأصابع التي سيمكث في انتظارها حتى تعود.



الشجرة

الصبــاح ما زال جميلاً، كما كان منــذ الأزل.. كعهدي به أول مرة، عندمــا رضعت ضياءه الألماسي بوريقــة فستقية واحدة، يجرح النسيم خدها الأزغب الطري.. منذ ذلك الصباح، والشمس الطيبة الخيرة ما تزال تندفع إلى أعماقي دون كلل، فتمنحني الحياة والنماء...

كيــف السبيل إلى إفهامهــا أنني لم أعد أريد ذلك؟ أنني أريدها أن تكــفّ عن التسلل إلى أعماقي الهرمة المتعبــة؟ أن تكف عن الاستمرار في فتح النوافذ بيني وبين عالم يغتال فيه كل جميل ونبيل؟ أن تدع قلبي وشأنــه، عــلّ الظلام يحمل إليه شيئًــا من راحة، صــار يستلبها النور.. أعــرف أننــي لــن أستطيع إيقافهــا.. وأنــه لا يحق لي مقاومــة الحياة، حتــى عندما تكــون حياتي، فإن سر إعجاز الحياة فــي كونها تمتلِك ولا تُمتلك...

لو أن هذه الآلة الرهيبة، التي أزَّت بجوار جذعي يومذاك، قطعتني، كما قطعت جاراتي على امتداد الشارع!.. لو أنني لم أكن الأكبر والأبهى علــى تلــك الناصية! من ذا الذي يمقــت أن يكون الأكبــر والأبهى! أنا.. عندما يسرّ بهائي المجرمين، ويعجب اللصوص...

الوجــوه والمنــازل والطرقات، وكل ما عرفت وأحببــت، تغير.. وأنا باقيــة كما أنا.. تمر بي الفصول في طريقها المرسوم في دورة الحياة،

تعريني وتكسوني، تنبت لي أغصانًا، وتخرج لي أوراقًا خضرًا من سندس وإستبرق، تكللني بغبارها، وتغسلني بمطرها، وتكويني بشمسها.. وأظل مسمـرة في مكاني أختزن غربـة روحي بصمت السجيـن الراسف في أغلال لا يستطيع لها كسرًا، ولا عليها اعتيادًا.

لـم يقطعوني، فهم يريدون أن أظلهم.. وأخلع الجمال على المدينة المسروقة، التي ترفضهم أرضها وسماؤها، ويلعنهم ترابها وشجرها.. الهويـة المزورة التي أعطونـي إياها عملة زائفة لا غطـاء لها.. أما أنا فكيـان آخـر.. تعلمت أوراقي الحفيـف من الأذان في مـآذن الأقصى، مذ كنـت وريقتين ترتعشان على غصن نحيـل، تسقيهما الماء والمودة والرحمة، يـدان خشنتان دافئتان، وتهمس لهمـا شفتان يطيبهما عطر قرآن الفجر المشهود: بسم اللّه الرحمن الرحيم.

كيـف أظلهـم؟! وأنا أعـرف أن العهـد كان مسؤولاً، وأنـا مرتبطة بعهـود، امتصصت بموجبهـا رحيق الحيـاة من أجسـاد أولئك الذين يشاركونني التراب الطهور، يباركون بعيوني أولادهم الذين استشهدوا؛ دفاعًـا عن شرعة اللّه فـي هذه الأرض، وتنقل إليهـم فروعي فجذوري أخبـار أحفادهم، الذين يحيونها ويحيون علـى صدرها، فيطمئنون في مراقدهـم إلى أن القمح المجبـول بأجسادهم، والبرتقـال الريان من دمائهم يتجسد رجالاً مثلهـم، عندما كانوا أبناء الشمس والعطاء. وأن ما أرادوه ما زال يتحقق ويعيش.

أنا أسيرة الحياة والتراب، أتجرع مرغمة كأس العيش حتى الثمالة، وأتنفس مرارة القيد والإرغام والعجز، أحسها سمًّا يجري في أوصالي..

أتحـرق رغبة فــي أن أتقلص وأضمر، فأفسح الطريـق لسياط الشمس الغاضبة، لتنهال على كل رأس آثم يحتمي بي...

ولكنها آتية.. تحتضن حقيبتها.. تلوح لطفل على الرصيف المقابل، قدماهــا تجتــازان الزمن، تخطوان إلى غد نظيـف، تواصل صنعه على مقعد المدرسة القديم.. ستقف الآن في ظلي في انتظار الحافلة ...

رحت أتابـع خطواتها، وهي مقبلة إلي، إنها تنظر في ساعة يدها.. ومددت بصري أبحث عن الحافلة من أعلى.. لا تزال بعيدة.. الآن تأوي إلــى جذعي.. ليتها تقترب أكثر.. هــا هي ذي تتوقف على بعد خطوتين منــي.. ووجهها الشــاب الطفل ينضـح توثبًا وإصرارًا ووضــاءة.. تنقل بصرها من جديد بين ساعة يدها، ونهاية الشارع الطويل، وتتلفت يمنة ويسرة.. تخرج كراسها بتوتر، وتسند الحقيبة إلى جذعي، ثم تستل من جيبها قلمًا، وتفتح الكراس...

أمــد بصري.. شعــر! .. تمحو بذيــل القلم، وتبدل كلمــة بأخرى.. شاعرتي الصغيرة.. عن ماذا تكتــب اليوم؟.. كانت القصيدة السابقة عن طفل يجمع الحجارة؛ ليقاوم الصهاينة.. واليوم! يا للكلمات!

يا بيتَنا المحزونَ إنّا عائدون

فالزيفُ مثلُ الثَّلج

والحقُّ مثلُ الشَّمس

والليلُ لنْ يكونَ سرمدًا ...

ارتعشت حتــى الجذور.. تمنيت أن أنحني لأقبـل رأسها الصغير.. وجـاءت الحافلــة.. لملمت (مرام) أذيال ثوبهـا وصعدت.. ومن جديد لمحتها وراء الزجاج، تسوي حجابها.. وتنقح القصيدة ...

وهــا هو (حاتم)، جـاري وحبيبي.. رأسه الشامــخ يمنحني شعورًا بالاعتــزاز والعافيــة، وشعــره اللطيف الأمــواج يحمل إلــي نكهة الغيوم الطليقة فوق الكرمل، وعيناه الدافئتان الحييتان تزرعان الطمأنينة في أعماقــي.. استند بقامته القوية الرشيقــة إلى جذعي، وزفر مطلقًا كمًّا مــن الانفعال، كمن استراح لتوه من عناء كان يكابده.. أحسست بحنان طاغٍ، تمنيت أن أحتضنه وأهمس له: اللّه معك يا بني ...

المسطرة الهندسية الطويلــة تمتد بمحاذاة جسمه، وذراعه تطوق الكتــاب، ويضيء جبينه إرهاق السهر الساحر، الــذي شاركته إياه ليلة أمســ. إنــه جاري.. أراقبه دائمًــا، وتبدأ وحشة ليلــي عندما يطفئ نور حجرته، ويسرق الظلام مني ملامحه الأصيلة النبيلة ...

ترى إلى أين وصل في بحثه عن العمارة في القدس القديمة! .. كم أخشى أن يثير عليه نبوغه وتفوقه نقمة جنود الظلام! كم أشفق أن تمتد أيديهــم السود إلى طموحه وعرقــه، فتهصر ثمارها، وتملأ ذلك القلب الكبيــر المتطلع يأسًا وألمًا.. وجاءت الحافلــة.. وثب حاتم رشيقًا قويًّا مصممًا، ومضى ...

وابتسمــت... برغم عجزي وضيقي ابتسمــت.. فقد اكتشفت أنني، وبرغم أنوفهم، بل بتدبيرهم، ما زلت أسهم في صنع الحياة كما أرادها بارئهــا على هذه الأرض المباركة.. ما زال فــي إمكاني أن أكون واحدة

من تلك الأشجار الحية الطيبة الثابتة الأصل الباسقة الفرع، التي تؤتي أكلهـا كل حيـن بإذن ربها، وتجـد حياتها في كونها ركنًا يـأوي إليه من يصنعون جمال الحياة ...

وهزتنـي نشوة عميقـة، وأنا أترف الروح باستشعـار اتحاد من نوع فريـد، بيني وبيـن حاتم ومـرام، وكل أبنائـي وأحفادي مـن أهل تلك الأرضـ، التي بارك الله فيها وحولها.. لقد بقيـت هنا بإرادتهم، وبقوا علـى الرغم منهم.. لا يهم السبب، المهم أننـا هنا أنا وهم.. نحن من هـذه الأرض، بـل هي منا. فـإن أراد الصهاينة البقـاء فليقتلوا كل من عليها، وليقتلعوا كل الأشجار.. وبذلك يقتلون أنفسهم ...

أمـا نحن فسنولد من جديد، لقـد أنبتنا الله من هذه الأرض نباتًا، فإن قضى أن يعيدنا فيها بأيديهم، فسيخرجنا منها إخراجًا، وسيرضعنا قلب الأرض الحياة، لنخرج بنبضه إلى النور من جديد ...



الصهيل

الفضـاء النقي الذي لا حدود له.. لم أفهم كيف اتفق أن يكون، في وقت واحد، مصدر عذابي، وغاية روحي!

الشمس تشـرق هنـاك.. أراهـا وراء السور المنيـع المحيط بي.. وتجلدنـي بلا هـوادة أشواق موجعة إلـى السهول الضاحيـة المحرمة، ويستيقظ في برد وغربة، تترجمهما قشعريرة مفزعة...

حتـى متعتي بالذكرى بدأت تتحول إلى ألـم.. حتى طعم الحلم بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا.. بدلته مذاق الملح والفحم ...

عندما أيقنت أنني في الأسر.. خيل إلي أن من العزاء، بل من الحق، أن أقـول: أنا من اختار.. لكنني سرعان مـا اكتشفت أنني واهمة.. لقد ضللني اختياري فاندفعت، وخذلني اندفاعي، فاستسلمت.

حملت ورِقِي إلى المدينة ولم أتلطف، ولم أحرص على ألا أشعر بي أحدًا.. وأنكرت المدينة ورِقِي، فقد كانت تعتمد عملة أخرى، وأنكرتني، فقـد كنت فيها غريبة الوجه واليد واللسان.. كنت فيها من أنباء الغيب التـي لـم تهتدِ إلى ما وراءهـا، فبنت على جثتي بنيانًـا، ولم يقل الذين غلبوا على أمرهم: لنتخذن عليهم مسجدًا ...

إننـي غارمة إلى حد قصم الظهر.. ذلـك أن من حملت إليه ورِقِي كان مدينـة لا تعتـرف به، ولم يعـنِ له شيئًا، وما كان يمكـن أن يعني.. ولم يكن يملك لي إلا بنيانًا يقيمه فوق جثتي، كما لا أملك له إلا الحيرة

والبلبلـة، حتى آثر السلامة، فلم يمـارِ فيّ إلا مراء ظاهرًا، ولم يستفتِ في منهم أحدًا.

لم يخدعني قط، ولعل هـذا كان فضيلته الكبرى.. أنا التي رفضت أن أصدقه، عندمـا لم يخفِ عني أنه كغيره تمامًا من صائدي الخيول، الذيـن تعج بهم تلك السهول والتلال البهية.. أصررت على أنه مختلف، أنـه طراز فريد لم يكتشفه أحد قبلي، إنه جدير بكل ما أنوي أن أمنحه إياه، مما لم ينله غيره من قبل.

حاورنـي طويلاً.. حاورني بصمت، ومن بعيد.. راح يتربص بي أنى اتجهـت في مثابرة وصبر دؤوبين.. لكـن محاولاته لإحاطتي بأنشوطته كانـت كلها تخفق، ولا أذكـر تمامًا متى غدًا تربصه بـي بعضًا من متع السهول، ونشوة الإصبـاح والأمسية.. رحت أراقبه، وأترااى له معابثة، فـلا يملك إلا متابعتـي بنظرات غامضة، يغلب اليأسـ فيها الأمل، وأنا ألاعب الريح في المروج البعيدة ...

بهرني عنـاده وصبره.. كان لـه ساعدان قويـان، وكتفان مشرفان يوحيـان بالشمـوخ.. بهرتني حتـى العشق خطواته الواثقـة المصممة، وبراعة يديـه في تهيئة الحبـال وإلقائها، وإحكام تدابيـره في معالجة طرائده.. وقررت: إنه يستحق أن ينتصر علي.. ولم أدرِ وقتها أنني كنت أقامر، غير مضطرة، بكل شيء.

ودعوتـه، وأنا أمنع ما أكون عليه، وهو أحرص ما يكون علي، وأيأس ما يكـون مني.. ناديته كما لم يعتد أن تناديـه فرس، فهب إلي بحباله، تفترسه الدهشة، ويساوره الشك فيما يسمع، ويرى..

لا حاجة بك إلى الحبال يا فارسي.. سأمنحك الشعور بأنني أخضع لــك، لأنك أهل لأسري.. لأنك تستحق أن أكون لك أنت دون الصائدين والسهــول والفضاء.. وكان هــذا، في اعتقادي، أثمن وأغلى ما يمكن أن يقدم لعزيز.

أتيته في إغفاءة يقتنصها.. انحنيت عليه بود، قررت ألا أجفل متى استفاق، وأن أستسلم إليه كما تحدث الأعجوبة أو المعجزة، فلا بد من أن يفهــم أنني أتعمد ذلك وأقصده، وأنني لست أسيرة تحبسها القيود، وتمسكها الأسوار، ولكن أسيرة يكبلها الحب باختيارها.

كانــت أسعد لحظة في حياتي تلك التي رأيت فيها، كوميض البرق، الدهشة المنبهرة في عينيه، عندما هبّ صعقًا، يستل أنشوطته؛ ليقذف بهــا إلى عنقي.. وسربلنــا ارتياع المفاجأة، كنت فــي ضياع.. وكان في حلــم.. إنها اللحظة التــي كان يمكن أن تغير كل شيء، اللحظة الوحيدة التــي كان بإمكاني فيهــا العودة من حيث أتيــت.. اللحظة الأخيرة التي كان لي فيها القرار، والتي سحقها اغتالها الشلل، أمام روعة اللقاء بعد وصب الشوق، حيث نسيت تمامًا ما كان يجب ألا ينسى أبدًا...

لم أقاوم حين وضع أنشوطته بعنف حيث أراد.. كنت آمل.. أتوهم.. أنتظــر، في يقين ضبابي، أن يفهم.. أن تحدث فجأة المعجزة، ويفهم. لكــن تصاعد دهشته بدأ يغرز خنجرًا لئيمًــا حارقًا في صدري.. رحت أتفرس في عينيه بلوعــة.. أترقب اختفاء تلك الدهشة القاتلة.. أترقب الفهم.. أترقب، وقد طالت النظرة، أن تعقبها تلك الأمنية الغادرة التي كانــت تفر إلــى المجهول ساخرة متشفية.. أن يمــد يديه تحت نظراتي الولهى؛ لينتزع الأنشوطة من عنقي...

واختفت الدهشة أخيرًا.. عندما راح يحكم حباله حول عنقي بعناية، وكأن ذلك كل ما يجب عليه عمله.. كأن ما حدث لا بد أن يحدث؛ لأنه نتيجة منطقية لانخداعه الطويل بقدرتي، إحساسه الخاطئ السابق بأنني منيعة قيمة.

برغم ذلك كله ظللت أحبه.. فليست نبضاتي بهينة علي، وأنا مخلصة لها إلى درجة التضحية. وبات الأمل كل ما أملك.. وكان عنيدًا وصلبًا، حتى وهو يتفتت تحت ضربات مطرقة الواقع.

إلى قعر زنزانتي كان يصلني دائمًا نداء السهول، وكنت أجيبها مهزومة القلب مجلجلة الصهيل.. أنا سعيدة هنا!

كنت أتمنى أن أقول يومًا: أنا قادمة.. لكنني لم أفعل حتى اليوم.

شيئًا فشيئًا أيقنت أنني فشلت.. أن فارسي لم يفهم يومًا ما أردت.. أنني لست الآن أكثر من واحدة من تلك الخيول، وليس إلا صائدًا يؤكد بأسري براعته ويثبت نجاحه.

توازت المرارة والحب.. بعد أن أرهقني صراعهما الطويل الشرس.. ولم يلاحظ فارسي ذلك، فقد كان منصرفًا إلى إخضاعي وتطويعي وتدريبي، بينما كنت أستميت للفته إلى الفرق بين ما يأخذه مني قسرًا، وما يمكن أن أعطيه إياه طوعًا.. كنت أريده أن يفهم أنني أعطي أكثر بكثير مما يمكن أن يؤخذ مني.. ثم اكتشفت أنه لا سبيل إلى ذلك، ليس لأن ما أريد صعب أو غريب، ولكن لأنه لم يكن يعني له شيئًا.

كان يثيره عنادي تمامًا كما يثيره عناد الجياد الأخرى، ولم يكن استسلامي إليه في البداية إلا دليلاً على وجوب استسلامي إلى

سوطـه وحباله الآن، وراح يمارس عمله كمروض له سمعته التي يحرص عليهـا، فانتظمت بمقتضى عدالته المشهودة في رتل الجياد التي يملك ويروض، ينالني ما ينالها من لسع السوط، والحبس والقيد، ومكافآت الامتثال والخضوع...

واستقـر لدي أنني خرقـاء، سعيت بقدمي إلـى ذي مدية، وغاليته فـي ذبحـي، كما لم يفعـل أحد، مما أباح لـه أن يعدّ ذلـك برهانًا على براعتـه وتفرده. ولم أكن أملك ما أدعي عليـه برهانا، ولم أحفل كثيرًا بذلـك، فلم يكن يهمنـي سواه. وكنت أظن أن معرفتـه للحقيقة تغنيني عـن البرهان، وذلك قبل أن أكتشف أنـه يتجاهلها عمدًا، بل يسعى إلى طمسهـا والتعفية على آثارها. كأنما هـو يخشى أن يسلبه إقرارها شيئًا من مجد، كان قد غنمه باردًا في غفلة من الأعين.

راح يجرجرنـي على صخرة مذبحه، شاهرًا مديته،متباهيًا بقدرته وقوتـه، مبرهنًـا على براعتـه وجدارته. وأشهـد أنـه كان نزيهًا، يقدم الشاهـد تلو الشاهد على عدلـه واستقامته، في معاملة جياده كلها وفق قاعـدة واحدة صارمة، لا يحيد عنها، كما تقتضي قوانين المهنة، وكما ينبغي أن يفعل المروض الفاضل.

وكنت مطيعة منصاعة ما استطعت.. أزجي، حيية منكسرة، براهيني غير المعترف بها، على أنني أملك هذا وذاك، ولم يحدث مرة أن عنـت له كنوزي تلك شيئًا.. ووجدتني بيـن هاويتين مخوفتين: خسران الحب وخسران الذات. ولم يكن البرزخ بينهما يتسع لقدمي معًا، فكنت دائمة التأرجح، وكان لا بد لي من الاختيار، فاخترت الحب.

وهكـذا رحت ألتمس له الأعذار.. مـاذا يعني الجواد للمروض أكثر مـن القوة والطواعيـة وسلاسة الانقيـاد، وتوفير متعـة الركوب ونشوة الفـوز والمنافسة؟ لقد غفر له الحب، ولكـن الذات المفجوعة بأخص ما تملك لا تحب.

تعبـت.. ولم يكن ثـم طريق.. واستسلمت خائرة الـروح والجسد.. لا يحـق لـي أن أطالبه بالتخلي عـن أسلوبه، مقابل مـا قمت به بنفسي ولنفسـي، دون أن يطلبـه، أو يعلـن استعـداده لدفع ثمنه.. ثـم إنه في الحقيقة لا يملك ذلك الثمن، وهو لم يطلب أكثر من جواد يروضه. لقد حصلت على ما أردت، فلأدعه يأخذ ما يريد.

وهكذا قررت إلغاء بعدي الثالث، عمقي الموجع، الذي لا يريده، ولا يحفـل به، ولا يتفهمه غيري.. هكذا خيل إلي أن بإمكاني تجاهل المدية المزروعـة فـي قلبـي، بل تجاهـل القلب نفسـه، ورحت أتحسـس أناي المقترحة.. وكنت على يقين من أنني لا يمكن أن أكون بلا قلب.

مديتـه المغروسة في، إذًا، لـم تجهز علي، وما كان، ولن يكون لها، أن تفعـل، فأنـا لا يقتلني إلا ما ينبع من ذاتي، ولا يحييني إلا ما ينبجس منهـا.. لكنني كنت مذبوحة مـن دون مديته.. مذبوحة بخيانة اختياري واندفاعي.. بإفلاسي حتى من حق التظلم إلى نفسي، أو إلى أي كان.

عناكب اليأس تشلني بنسيجها اللزج.. هي الأخرى تأسرني.. كيف أسمـح أن تتلاشى تلك الروح الرائعة التي أحب، لتحل محلها روح ذات حدود محصورة بأضلاع، أو محاطة بخط مغلق، أو حبيسة في نقطة لا يمر بها مستقيم، نقطة سائبة في مستوى وهمي لا وجود له أو لها؟! هنا لا أملك أن أختار، فلا قابلية للاختيار بين ما لدي من متغيرات.

الفضـاء الذي يمتلكنـي، الذي ينادينـي بالقوة نفسهـا، بالتصميم نفسه، والوجـع نفسه منذ غادرته، لم يبقَ منه إلا الحلم السرابي الزلق، أستوطنه بشكل ما، ولا أعرف لهذا التشكل تسمية، ولا أستطيع له تعريفًا.. الحبـال والحواجز والجموع التي تحـدق بالحلبة، حيث يتجسد انكساري وقهـري، تسخر مـن الفرق الهائل، بين الحقيقة التـي تتوهج في صدري وحده، والوقع البليد، الجاثم على إرادتي يخنق الأنفاس في صدرها.

أفكر في القفز إلى هناك؛ لأستعيد نفسي وليعرف الجميع الحقيقة لأعـري الحقيقة لـه ولهم جميعًـا، لأثبت أننـي لست أسيـرة مغتصبة الإرادة، أن رقبتـي لم تخلق للقيد، وعيني لم تخلقا للجدران والظلام.. أستطيع ذلك، أجل.. فأنا، كما زلت أذكر، أملك أجنحة خفية.. وما من شيء لا يستطيعه من يقرر دفع الثمن!

ولكن.. من يملك ذلك الثمن الـ ...

أنا؟!أجـل إنني أملكه : أتنكر لـكل ما صنعت، أمحو من حياتي تلك الخطـوات القاتلة، التـي طوت ذلك الطريق.. أمحـو اختياري الغادر.. أمحـو اندفاعي الأعمى، أمحو فارسـي الذي لم يستطع أن يفهم، أمحو كل مـن رآنـي أستسلـم لقبضته المدعيـة، وحواجزه العبثيـة، وسوطه الأرعن، ومديته المزيفة.. هو ذا ثمن الحقيقة!

... مرة أخرى ألجأ إلى ورِقي البهرج، عملتي الباطلة.. عملتي التي لا تدفع نقدًا، ولا تحول، ولا يقايض بها. هذه المرة أنا أدرك أنه لا معنى لامتلاكهـا.. أن الحقيقة مدينـة أخرى من تلك المـدن التي أفتح كفي على أبواب متاجرها بورقي، فتنكره وتنكرني...

السهول البهية القصية التي لا تزال تستحم بمطر الصباح الربيعي، وخيوط الشمس المذهبة لا تزال تتبعثر في النثار الألماسي للديم البيض الناعمة، وتهوي بعطش وشوق إلى المروج السعيدة، والفضاء واسع واسع إلى ما لا نهاية، أنا.. لا جناحين ولا قوائم ولا عينين لي، ولا أملك إلا الشوق والهزيمة.

وأطلقت شأواً من الصهيل الذبيح.. واختلطت دموع مرّة حارقة بطعام الصباح الفاخر، الذي راح يتجمع في حلقي حفنة وراء حفنة كالحجارة...

ومزقت أحشائي آلام غريبة، وأنا مطرقة فوق الطعام، ثم تجمعت من حولي أقدام كثيرة ذات أحذية طويلة.. وعبر الطنين الذي يشبه زمجرة الرعد في أذني وصدري وأوصالي، تسللت عبارات: إنها مجنونة.. مسكينة.. لعلها مريضة...

ومد آسري يده.. وراح يربت رأسي.. بحنان!



قُطَيْطة

استلقت أمه منهكة قرب مهد أخيه الرضيع، ولم تلبث أن راحت هي الأخـرى في سبات عميق. أما هو فمـا زال ممددًا فوق الأريكة الكبيرة، تتقافز عيناه الزرقاوان اللامعتان في أرجاء الغرفة الواسعة، التي تلفها رطوبة محببة، في ظهيرات آب اللاهبة، وينطق كل ركن فيها بالنظافة الفائقة التي تمتاز بها بيوت البسطاء، في أحياء حلب الشعبية.

توقفت نظراته المنقبة علـى التلفاز المغطى، وعبر خياله النبض، راح يتواثـب أبطـال قرية التـوت، وكعبول، وريمي... ثـم طالعته صورة جـده الكبيرة على الجدار.. وتحلّب لعابه لمرأى جيوبه الملأى بالحلوى والنفاخات الملونة.. وأخيرًا استقرت عيناه على فرجة الباب المفضي إلـى درج السطح، وقد تسلل منها وهج طيف الشمس، التي تنسكب على كل شـيء فـي الخـارج.. وفجأة رآهـا.. قطيطة شقراء، مـدورة الوجه والعينيـن، تحشـر جسمهـا الضئيـل بيـن المصراعين، وتنسـاب إلى الداخل بصمت وأمان، وكأنها لا تراه...

تحفـز كل شـيء فيه.. وهتـف أخيرًا، بصـوت يكاد يسمـع، برغم حرصه على إغفاءة أمه، التي هي الآن أثمن ما لديه: قطة ... !

واعتدل فوق الأريكة، مصوبًا نظرات متلألئة حذرة إلى أمه النائمة. ثم هبـط الأرض باحتراس، بقدميه البضتيـن العاريتين، وجعل يتقدم

نحوهـا هاشًّـا، تكاد ثرثرة ضحكتـه العريضة ترن، فـي صمت وسكون القيلولـة، وراح يدعوها إليه بإيماءات عفوية من كلتا يديه، ومن رأسه، ومن عينيه.

انكمشـت القطيطة قليـلاً، فتوقف مشفقًا أن تنفـر، وطفق يخالس أمـه نظرات خاطفة لا تكاد تخلو من خـوف.. أرخت الزائرة عضلاتها مطمئنـة، كأنما أنس ضعفها بسنواته الخمسـ الغضة، لكنها لم تتقدم خطوة واحدة...

فجأة تذكر شيئًا.. عاد إلى سرير أخيه، وتطاول حذرًا يستلّ زجاجة الحليب التي لا تزال دافئة.. رفعها أمام عينيه وهمس لنفسه، وهو يتنفس بارتياح: ... فيها... واستدار إلى القطيطة، يلوح لها بالزجاجة، وأراحه أن لمس منها المزيد من الاطمئنان.

هبـط الأرض، في مكانه، ثانيًـا ركبتيه، وراح ينفض الزجاجة بقوة فوق البلاط المصقول، فتناثرت منها بضع قطرات.. لمعت عيناه بفرح، وهـو ينقلهما بين قطراته الثمينة، وأمـه النائمة، والتفت إلى القطيطة مغتبطاً..:

تعالـي.. خذي حليبًـا. لكنها كانت منصرفة عنـه، تنظر في اتجاه آخر.. فانتصب وهو يحس بشيء من الخيبة والغيظ، وأخذ ينقل قدميه ببـطء وحذر، باتجاه الزائرة الغبية، يدعوهـا بكلتا يديه، هامسًا: بس، بس ... بس، بس ... حليب، حليب ...

كان محمد، في دبيبه اللطيف، يحاذر شيئين خطيرين: يقظة أمه، وانفـلات القطيطة، هاربة من حيث أتـت. ولكن أيًّا من ذينك لم يقع..

كل ما في الأمر، أن القطيطة استقبلت الزحف الحلو بشيء من التوجس والانكماش، ولم تفكر قط، في الباب الذي دخلت منه قبل لحظات...

أخيرًا وصل إليها.. انحنى يلمس رأسها بحذر وانبهار.. وأزهرت ابتسامته، واتسعت، وهو يراها تغمض عينيها باستسلام.. وهكذا نسي أمه، وقطرات الحليب، واقترب منها أكثر، وأحاط عنقها الناعم بكفيه، محاولاً جرها إليه بلطف: تعالي.. تعالي ...

أبدت القطيطة شيئًا من المقاومة، فعدل عن جرها، وعاد يقترب مجربًا أن يحتضنها بذراعيه.. وأخيرًا حملها.. ضمها إلى صدره.. كان يتخيلها ثقيلة الوزن كأخيه، لكنه فوجئ بخفتها، فاستوى بها واقفًا يعصف به فرح وزهو، وتثرثر فوق شفتيه ضحكة خافتة تكاد تقفز من ابتسامته العريضة، وطغت على وجهه البراق نشوة النجاح بالانتصار على هذا المخلوق الناعم المشتهى.

راح يحدق في جسدها اللدن المستسلم إلى ساعديه، ويتحسس بذقنه شعرها المغري متلذذًا.. ورفعت وجهها إليه، ثم طرفت بعينيها العسليتين المستسلمتين، فاستخفه فرح وحبور سال لهما لعابه.. أحكم ساعديه حول جسدها بحرص من يحمل كنزًا نفيسًا، واتجه إلى الباب، يدفعه برفق بقدمه العارية، حتى كاد يغيب الشق بين مصراعيه...

عاد يتفرس في عينيها المتحببتين، وقد أمتعته ألفة بريئة ودفء حميم تجيد الطفولة التنعم بهما.. وفجأة تذكر: تريدين حليبًا؟

وبحث بنظره عن موقع بقعة الحليب، فهدته إليه الزجاجة، فاستدار بها، وهو يتمتم بحنان، مستحضرًا صوت أمه: جوعانة؟.. أنت جوعانة؟

وانحنـــى يضعها علــى الأرض، في مواجهة قطــرات الحليب: كلي.. كلي ...

مشت القطيطة فور ملامسة قوائمها الأرض، فعاد يمسك بظهرها، ويدير جسمها النحيــل إلى حيث قطرات الحليب التي تكاد تجف: أوه.. هذه، هــذه.. ولكنها لم تهتدِ إليها، إلا بعد أن كاد يلصق فمها بها. وفي لمح البصر اختفت بقعــة الحليب! وهزه طرب قفز له، وانفلتت ضحكة جذلــى من بيــن شفتيه، وهــو يغمغم كالمسحــور: يــا أللّه.. انتظري.. انتظري هنا.. لا تقتربي من أمي.

مشــى خطوتين مــن دونها، ثم عاد كمن فطن إلــى شيء.. وانحنى يحملها: تعالي.. تأكلين سمسمية؟

ودخــل بهــا غرفة جــدي المشرعــة البــاب.. أنستــه سعادتــه بها الامتعاضــ الذي يحسه كلما دخل غرفة جديه المسافرين.. ها هي ذي علبة الحلــوى المعدنية المدورة في متناوله كالمعتاد.. رفع الغطاء غير المحكم بيد واحدة، وكشف الغطاء الورقي الأبيض الذي تحرص جدتي علــى ستر سطح الحلوى به، ثم التقط قطعة شقراء لماعة، ولم يستطع مقاومــة إغراء القطر الشفــاف المتبلور على سطحهــا، فلعقها بشهية مــرات عدة، ثم قربها من فم القطة.. هشت لها، وتشممتها، ثم طرفت بعينيهــا، وأشاحــت لا مبالية. قال غير شديد الأســف: لذيذة.. انظري كيف آكلها...

ورفــع رأسه فاتحًا فاه، وألقــى بالقطعة فيه، وراح يمضغها ويتمطق هازًّا رأسه، مبالغًا في إظهار تلذذه، كما لو كان يغيظها: أرأيت؟

غادر الغرفة جذلان، مستمتعًا بتجوله بها، متحررًا من خطر أمه، التي لا تسمح بوجود قطة في البيت، وقد سبق أن طردت أكثر من واحدة حاول اقتناءها... فجأة ماءت، فأجفل، وتراخت يداه عنها، فهبطت الأرض بخفة.. وماءت ثانية، وراحت تتمشى ببلادة.. تبعها محمد فزعًا، يضغط بسبابته على شفتيه الورديتين المضمومتين: هس هس.. الآن تستيقظ، وتلقي بك خارجًا ...

وأضاف يشاغلها عن المواء: تأكلين خبزًا؟

ولم ينتظر جوابها، بل سارع إلى المطبخ، وهو يدعوها بحركات يديه مغريًا إياها باللحاق به، في محاولة مستميتة لإبعادها عن مضجع أمه.. كان مطمئنًا إلى أن قدميه العاريتين، وقوائم القطة المزغبة، لن تحدث صوتًا يوقظها.. وطار فرحًا عندما راحت تتواثب خلفه.

كانت بقايا طعام الغداء لا تزال في أوانيه، وجعلت القطة تتمسح بساقيه، مشرئبة الرأس والذيل.. أحس أنها ستموء في أي لحظة كانت، فعاجلها بقطعة من الخبز: هذا خبز فيه «كباب» ...

ماءت نصف موءة خافتة، واندفعت تتشمم ما في يده منهمكة، فاضطرب، وعاجلها بإلقاء قطعة الخبز أرضًا، فهرعت تلتهمها بنهم.. جلس القرفصاء، شاخصًا إليها ببصره، لاهيًا عن كل شيء.... راح يحاكي حركات رأسها، وفكيها بتجاوب غريزي.. ثم زادها قطعة ثانية وثالثة، حتى لاحظ عزوفها عما يقدمه إليها.

حملها بين يديه، ونهض بها متثاقلاً، ثم رفعها إلى صدره، وهمس: قولي: الحمد لله رب العالمين.. وبدا له أنها قالت، فأضاف متلبسًا

سحنة جده، عندما يقول بعد الطعام، متعمدًا أن يسمعه محمد: الحمد للّه الذي أطعمنا وسقانـا، وجعلنا مسلمين.. وأضاف كما يضيف جده: أعيدي ...

غادر «محمد» المطبخ بحمله الثمين نشوان، لا تسعه الدنيا، وصوب نظـرات متفحصة إلى أمه، ولمـا اطمأن إلى أنها لا تـزال في سباتها، تقـدم حذرًا من الأريكة، التي كان مستلقيًا عليها.. وضع القطيطة أولاً، ثـم تبعهـا بأقل قدر ممكـن من الجلبة. لكـن الأريكة أصـدرت صريرًا لم يكن يتوقعـه، فلف ذراعيه العاريتين بحركـة عفوية حول القطيطة، وانكمش في مكانه متظاهرًا بالنوم، وقد جعل ظهره إلى أمه.

انبعث صوت الأم متشككًا خفيضًا: محمد.. لم تنم بعد؟!

فتمـاوت في ضجعته.. وسال الصمت اللذيـذ، فغمر الغرفة كلها.. وراح محمـد يتأرجح على صفحة ذلك الصمت الملساء المترامية، وقد احتضـن القطيطة الشقـراء.. ولم تكرر الأم سؤالهـا، أما محمد فظل يتأرجح بالقطيطة رويدًا رويدًا، وهو يبتسم بسعادة...

فتحت الأم عينيها، وألقت نظرة ملهوفة على ولديها.. كانا لا يزالان نائمين.. أي حظ سعيد هبط عليها اليوم!

وتحـولـت إلـى الأريكة، حيث يرقـد محمد، وغلبتهـا ابتسـامة.. عجبًا! كيف أتـاح لها اليوم هذا القدر من النوم! ذلك العفريت الصغير! ها هو ذا يغفو بسكينة، تعلو وجهه سمات الرضا، وقد عقد ذراعيه كمن يحتضن عزيزًا...

لمست جبهته بلطف، تمسـح حبات دقيقة من العرق، كانت تتلامع بيـن خصلات شعره المذهبـة المتهدلة على جبينـه. وألقت نظرة إلى البـاب.. إنه مفتوح، وجسـد الصبي مبلل بالعرق، ولـن يكون حسنًا أن تطولـه نسمات الغـروب الوشيك.. وسارعـت بإلقاء دثـار خفيف على خاصرته...

مـا إن ولـج الأب باب الـدار بعد يـوم طويل من العمـل، حتى هرع إليه محمـد، والدموع لا تزال عالقة بأهدابـه، وانخرط، بلا مقدمات، في بـكاء مفاجئ، لم يلبث أن غدا نشيجًـا ملتاعًا.. ووسط دهشة الأب وتساؤله، راح الصغير يشرق بالكلمات: ماما رمت القطة...

قطـب الأب مستغربًـا، متظاهـرًا بالاهتمـام، وهو يقبـل الصغير متلطفًا، ويكفكف دموعه مواسيًا: أي قطة؟!

- قطة جاءت.. أطعمتها ...

وراح يعول، مطلقًا العنان لدموعه وشهقاته. وهدهده الأب متعاطفًا: من أين جاءت؟

- من الباب ...

وأراد الأب أن يتاكـد أن الأمر حلـم، فقال مترفقًا: ماذا قالت لك؟ رمق محمد أباه باستنكار، وصاح حنقًا: ... القطة لا تتكلم ...

صمت الأب مفحمًا، وفكر ثواني، ثم عاد يقول في محاولة لجمع مزيد من التفاصيل التي قد تعين على اكتشاف الحقيقة: ماذا أطعمتها؟

- حليبًا وخبزًا.

وتدخلت الأم بقلق: أي حليب.. لم يتبقَّ لدينا شيء منه.

عـاد محمـد إلى البكاء بمـرارة، وراح يكرر بعناد وتحـدٍّ: أطعمتها حليبًا وخبزًا.. حليبًا وخبزًا ...

نظـر الأب من فـوق رأسـ الصغير إلـى زوجته، متسائـلًا؟! وكان واضحًـا أنها في مأزق حقيقي.. قالت، متأملـة الصغير بقلق: ... والله لا أعرف...

وأضافـت متعجبة: كأنـه حلم بقطة.. هذه المـرة الأولى التي ينام فيهـا نومًا عميقًا بعد الظهر، ولم أكـد أفرح بذلك حتى استيقظ، وراح ينقـب في كل زاوية من البيت وهو يبكـي، ثم راح يطالبني بقطة. وعبثًا حاولت أن أفهم ما وراء تصرفه ذاك ...

كان محمـد يصـوب نحـو أمه نظـرات منكرة مكذبـة، وقد خفض مـن حدة عويله؛ ليتسنى لـه سماع كلامها. واستفهـم الأب سرًّا: أهذا صحيح؟

أجابت الأم حيرى: أجل والله.. وأنا في دهشة، وحيرة ...

مسح محمد عينيه بظاهر يده، ونظر إلى أمه بغيظ وتحدٍّ: سترين.. لن أنام بعد الظهر أبدًا ...

ذو العينين السوداوين

توسعة الحـرم المكي بحر من مرمر بـراق، يتوامض على صفحته ذهـب شمس الظهيرة الخجول، متخلـلاً رذاذ الربيـع الألماسي الذي يغشـي البنـاء الجليـل، والجبـال الرمادية، وهـي تحتضـن البيت كما يحتضن الصدر القلب.. وجزر صغيرة بيض وسود من المصلين تتناثر هنا وهنا، تتابع فريضة الظهر وراء إمام الحرم.

هبطت السلم المرمري محتدمة، أجرجر صغيري المتعثر الخطى، فـي محاولة لتعويض الدقائق التي أنفقتها في بعض شأنه، فأخرتني، حتى فاتني بعض من الصلاة...

أعـاد المشهـد المؤتلق إلى النفـس سكينتها، وإلـى الصدر إحدى أعظـم منـن الله، التي تملأ الـروح والجسد نشوة وشكـرًا، منة النفس الطويـل العميق، الذي يعيد إلي مذاق متعـة الحياة، بعد ضيق أو شدة، فأستقبل أموري، وكأنني ولدت لحظتئذ...

دخلنا الحرم، والمصلون في القعود الأول، فلبثت، منتظرة قيامهم إلـى الركعة الثالثة، أختـزن في الروح أنفاس الخلـد، التي تتخافق من حولـي نعيمًا لا يدرك كنهه، ولا تُحدّ روعتـه، وأهيئ النفس المضطربة لسكينة الاتصال بالله، والركون إليه.

اتخـذت لـي مكانًا، وأجلسـت الصغير إلى جـواري.. وفي لحظة خاطفـة، وجدتنـي ملقاة في لجة عينيـن طفلتين، حجبـا ليلهما الحي

المتــرع بالأســرار والبــوح الضيــاء الماتع، والــذرا المغسولــة بالمطر والشمــس، وحــزم المصليــن المتنــاثرة علــى البلاط المتلألــئ... كل شيء اختلط، كل المرئيات ذابت في تلك الدنيا من الدهشة والافتتان، والرغبة المشبوبــة، المكبوحة بحواجز الاستحالــة والحرمان، الرغبة المقهــورة بصمت، الموجعــة ببراءتها وطهرها، ونقــاء الروح المتلهفة المتوارية خلفها. لم يكن ثمة ألم أو حسرة، إن هي إلا أسماء سميناها، أما الطفل فلا تعرفها روحه الملائكية.

استــلّ الصبــي الأسمر عينيه الآسرتين من عينيَّ على عجل، غير مكتــرث بنظراتي المأخــوذة، وصبهما بشغف فاضــح على يدي ولدي، اللتيــن تحتضنان دلــوًا بلاستيكية لطيفة، تشف عــن مجسمات زاهية، يتشكل من مجموعها قطار ملون طريف.

دفقــة هائلة من فــوران الشعور راحت تعصف بــي، ووجدتني كمن يقف في فوهــة إعصار.. نازعتني النفس إلى الانحناء على الصغير... إلــى ابتــكار ما يذيــب تلك النظرة التــي راحت تسوقني بــلا مقدمات، وتصهرنــي حتى الاختناق... تمزقت لحظة بينهــا وبين تكبيرة الإمام، ثم اندفعت بلهفة لا سلطان لي عليه إلى عمق الصلاة... كنت كالمنومة فــوق صفحــة البحــر، مسلوبة الاختيــار والفعل. ولــم أفلح فــي انتزاع شطــر روحي، كمــا انتزعت عيني، مــن عيني الصغيــر الأسمر النحيل الموجعتين.

جلســ طفلــي صامتًــا، وراح يجرجــر قطــاره بتبــاهٍ، بيــن ساقيــه المتباعدتيــن.. فقد لاحظ اهتمام الصبــي المنتصب المواجه له، وهو

يلتصق بجنب أمه متشبثًا بثوبها، كما لو أنه يعول على قبضته وحدها في الاحتفاظ بأمه، أما ما تبقى من كيانه، فقد كرسه تمامًا لتلك المتعة الكبرى...

وكانت الأم منهمكة بتأدية الصلاة مع الجموع، غير آبهة بالجسد الضئيل المتأرجح مع كل حركة من حركاتها، ذاهلاً عن كل شيء، إلا عن قطار صغير ملون، ليس له، تلهو به كفان صغيرتان مثل كفيه تمامًا...

ظل المشهد يحاصرني بإلحاح، وأنا أجاهد للتخلص من أحابيله البارعة، والتملص من سطوته المحكمة، فأغلبه تارة ويغلبني تارات، حتى قررت أخيرًا أن أغمض عيني، ليتسنى لي الانصراف إلى الصلاة.

أما طفلي، فقد أرضاه افتتان الغريب الصغير بما في يديه، فراح يبتكر الحركات والأصوات، ليبقي على هذا الإعجاب الذي يمتعه. وأما ذو العينين السوداوين، فقد استسلم بكليته إلى القطار المرح، فلم يعد يربطه بالدنيا سوى تلك الحفنة، التي تتشبث بها قبضته الدقيقة السمراء، من ساري أمه الرث.

كان جسده الضئيل يتموج مع كل حركة تأتيها الأم، فيترنح ذات اليمين، وذات الشمال، وهو منصرف إلى تلك المتعة الكبرى، بعد أن اطمأن إلى إحكام قبضته على الحفنة الثمينة التي تعني له الأمان.. ولعلها كانت الشيء الوحيد الذي يهمه، أكثر من القطار الصغير.

دون أن يكون لي الخيار، وعلى نحو لم يعد بإمكاني تذكره، وبرغم المحاولات التي لم تفتر لأبقى مع صلاتي، ارتحلت مع ذي العينين

السوداوين في القطار المسحور.. راحت أمواج من اليقظة والحلم تتقاذفني بلا هوادة.. الصلة الخالصة بالمطلق، الذي تشدني إليه الآيات الخاشعات البينات، وعالم الملائكة، الذي تذبحني على عتباته تلك الرغبة الشهيدة المجدلة في أغوار العينين السوداوين...

كنت أراها برغم عيني المغمضتين.. كانتا تخونانني.. يرغمهما انبهاري، ويغتال إرادتهما ذلك الشعور الذي أقام وجداني وأقعده، دون أن أستطيع له تسمية.. كنت مستلبة تمامًا أمام عالم الأحاسيس الذي تضج به العينان الناطقتان.. لم أستطع إلا أن ألبي دعوتهما إلى تلك الرحلة المسحورة في القطار العجيب.. رأيت ذا العينين السوداوين، وهو يستقله، وراقبته وهو يطل من النافذة.. يترنح ضاحكًا في المقطورة البرتقالية.. يدير بقوة وبراعة عجلة القيادة.. رأيته يحتضن القطار.. ينبطح أرضًا في مواجهته، ويعطيه إشارة الانطلاق.. سمعته يصفر؛ ليخلع عليه صفة القطار الحقيقي.. ولا أدري من منا كان الأصغر لحظتئذ!

كنت أمام حالة فريدة من الشغف والذوبان والاستغراق، استحضرت شيئًا من متعة الاكتفاء، بل الغنى الذي يملؤني، عندما يماهيني معنى أو فكرة، ثم يستجيب لها القلم، فينعم لي بوصل قلوب أحيا بها.. إنها المتعة التي أحلم باشتيارها في حالتها المثالية، بمراقبة عبقري في لحظات الإبداع المهيبة.. وما زال ذو العينين السوداوين، حتى يومي هذا، الحالة الأقرب إلى المثال المنشود.

شغلني ذو العينين السوداوين عن خشوعي أكثر من مرة، فكان لا بد لي من الحرص على إغماضتي، كان لا تأسرني عيناه، كما يأسرهما

القطار.. ولا أدري أين من ساحة الشعور وجدت مكاناً لقرارٍ كالوميض: سيكون هذا القطار لذي العينين السوداوين...

فرغ المصلون من الفريضة، ونهضت لإتمام ما فاتني.. وعبر واحدة من انفراجات الجفون المسروقة، رأيت الأم تهب عجلى، وتنتر الصبي المستسلم، وتجره منطلقة به، وهو يتلفت إلى القطار...

وطار قلبي وراءه... راحت المفاجأة والدهشة والرجاء تعصف بي، وأنا عاجزة مشتتة الفكر والقلب والروح.. مزقتني الصلاة والعينان السوداوان، وأحسست بقلبي ينخلع على آثار خطوات الصبي المتعثرة، وهو يجر إلى المجهول تحت سمعي وبصري، وبرغم أنف رغبتي اللاهبة، التي تعدل رغبته أو تزيد عليها.. لقد منحته القطار الذي اشتهى، دون أن أحظى بسعادة تلك اللحظة التي كان كلانا يتلهف عليها، سعادة امتلاك ذي العينين السوداوين القطار المشتهى.

ضاع ذو العينين السوداوين في الحرم الذي لم أره واسعاً، كما رأيته في ذلك اليوم.. ضاع وأنا في الصلاة.. قد أكون يوماً ناديته .. فقد هتف صوت ضارع في أعماقي : قف قليلاً.. قف ريثما أنتهي من صلاتي.. ولكنه راح يبتعد أكثر فأكثر.. وذاب في لحظة ظالمة.. في نقطة لا أذكرها، فقد ذابت هي الأخرى...

أتممت صلاتي، وأنا أعالج شعوراً يشبه حالة اليقظة الغادرة من حلم. كنت مفلسة عاجزة، مستسلمة إلى إجهاض شعوري الذي ترك في فضاء الروح والفكر هوة غريبة الشكل واللون والمعنى. وكان صغيري إلى جانبي، يلهو بقطار ذي العينين السوداوين...

كان ذلــك منذ سبــع سنين.. ومازالت بقايا مــن قطار ذي العينين السوداوين بين لعب ولدي.. ومازالت تلك النظرات العطشى المأخوذة تستأثــر بجوارحــي، كلما وقــع بصري علــى واحدة من القطــع الملونة الزاهيــة، التــي أردتها يومًا أن تكــون من مصادر السعــادة النادرة لي ولطفــل لا أعرف منه سوى عينين، عشــت فيهما ثواني، كانت أغلى من كثير من ساعات العمر وأيامه..

ومازالــت رغبتي الموءودة تغتلي في صدري، وتلوب باحثة عن رغبة ذي العينيــن السوداويــن، لتعتنق الرغبتــان، وتبقيا في قلــب الذاكرة، خسرانًا لا يدَ لأي منا فيه.

ولبثت زمانًا، أتحرى تلك النظرات، في رحاب الحرم، وفي طرقات مكة وأسواقها، كلما لاح لي صبي في الرابعة، أسمر الوجه، سبط الشعر حالكــه، يستوطــن عينيه ليــل غابات أفريقيــا الوسطى، حيــث لا يجد الصغار الكثير من القطارات الملونة المرحة.. لكنني لم أرَها قط ...

أيتهــا العينــان اللتان لــن أنساهما.. مــا كانت رغبتكمــا بأشد من حسرتــي.. وكــم أتمنــى أن تكــون الأيام قــد أتاحت لكما مــن المتع ما يغنيكما عن قطاري الصغير الذي لم أستطع في ذلك اليوم أن أسعدكما بامتلاكه ...



خانتك عيناك

كان يشعر بأنه يملك ما لا يملكه غيره، وإذا كان أكثر تواضعًا، لا يملكه الكثيرون.. ليست موهبته وحدها هي ما يميزه.. إنه تلك الروح النقية العاشقة للخير، الشغوف بالجمال.. إنه فكره الحر كأبدع ما تكون الحرية، المنطلق كأروع ما يكون الانطلاق.. إنها طريقته الفريدة في الحياة، تلك الطريقة الجريئة، التي تدفع بسخاء لا حدود له كل ما تملك ثمنًا لما تؤمن به وتسعى إليه...

إحساسه بتفوقه لا سلطان له عليه، لكنه مهيمن بإحكام على نوازعه، وقد وعى خطر الغرور المتربص به، فاتخذ لذلك أهبته، وأعد له أسلحته السرية، فلم يكتشف أي من المحيطين به كنه تلك الإطراقة المفاجئة، التي يعقبها اشرئباب خاشع، مشفوع بعبارة: الحمد لله.. الحمد لله.. يرددها كمن يتلذذ باستكشاف عوالم لا نهاية لها من الجمال، وآفاق لا حدود لها من الخير، الذي يمتعه ويرضيه، دون أن يسمح للغرور والكبر بتسميمه وإفساده.

كان يملك قدرة هائلة على العمل الدؤوب، فقد عوّد نفسه تجاهل صوت التعب مهما علا وجلجل، إذا كان يقوم بعمله، ولم يتح للنجاح الذي نال منه الكثير أن يدير رأسه، ويزين له الغرور، بل كان يتكلم عنه بتواضع أصيل فاتن، واقتضاب يزيد من سحر إنجازاته وقيمتها...

غاية سامية كانت تأسره، وتوجه دقة تفكيره وسلوكه، أن يظل ذلك الشـاب الذي يظلـه الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، لقد نشأ في طاعة الله وكنفـه، ولـم تطب نفســه إلا بمواصلة السير في تلـك الطريق النظيفة الصعبة. وعلـى الرغم من خطورة ميدانه الذي اختـار، وإلحاح خياله الفريد في الإخلاص لدفائن نفسه المكنونة، وبسط خلجاتها، وترجمة نبضهـا بصدق وصراحة، فقـد نجح في تطويع نوازعـه لدواعي الخير والبـر، ببراعة وإخلاص ومثابرة. فقد كان قراؤه نخبة من علية الناس خلقًا وثقافة وذوقًا.

وشغلته دروب الكلمـة المحاصرة الوعرة عن حياته وحاجاته، فقد استهلكت هموم الناس والأمة والوطن، وشؤون القلم وشجونه، في ذلك الزمان القاسي، رغائبـه، وغيبت الكثير من آماله.. وكان كل من حوله يتسـاءل عن المرأة التي يمكن أن تحظى بقلـب رجل مثله، المرأة التي تستطيـع النفوذ إلى تلك الأعماق المرهفـة المرهقة.. وكانوا يرسمون لهـا صورًا تترجم تقديرهم لمـا يليق به.. أما هو فـكان شديد التكتم، طويـل الصمـت فيمـا يتعلق بهـذا الأمر، حتى مـع أقـرب الناس منه، وأكثرهم ملازمة له.

وكان لا بـد لهـذا القلب أن يخفـق، فمن أجل أمثالـه كان الخفقان والحب.. وتعلـق بها.. تاقت نفسه إلى الاطمئنان في جنة صغيرة يجمع فيهـا ما تركتـه الحياة المقتصدة مـن بقايا الفـرح.. رأى فيها طفولة وعفويـة وتلقائية، وكانت ملامحها تشـف عن نفس لا تعرف من الحياة إلا الضيـاء، وجد فيها واحة مـن رمضاء الحياة، ومـلاذًا وحصنًا من أخطـار قد تترصد صفـاءه ونقاءه، في دروب عملـه الخطيرة، واقترب

منهـا.. جـنّ فرحًا بالنجم الـذي سقط في حجرها علـى غير انتظار، وبهرتـه فرحتهـا واندفاعها وحماستهـا، وألهبت خيالـه، وحفزته على العطاء، فأعطاها كل ما يملك، وكان ثروة، وكان كنزًا.. أغدق عليها كل دفئـه وحبه بلا حساب، كما يغدق على فكرة يؤمن بها، أو نبضة تختلج فـي عمق روحه. وكان فـي ظمأ إلى العطاء الواقعي الـذي لم يعرفه إلا مـع قلمه، وكان لسان حاله يقول: هنا فقـط أطلق العنان لشعوري، كما أطلقه لها عندما أكون مع قلمي وأوراقي...

أمـا هي فكان أكثر مـا يستثيرها حسد لداتها، وتمنيهن أن يكنّ في مكانهـا، أن يحظيـن برجل فذّ مثلـه.. وتملكتها رغبـة جامحة في فعل أي شـيء للحفاظ على ذلك الكنـز النفيس، وهدتها فطرة الأنثى فيها، والصـدق والعفوية فيه، إلى كيفيـة إحرازه وإرضائـه، إلى بذل الغالي والثمين من دون حساب؛ ليبقى لها.

أعطتـه الكثير ممـا رأته كفيـلاً بأسره..وظل ينتظـر أن تعطيه ما يريـد، ولـم يستعجلها، فقد كان يعـرف أن ما يريده، علـى بساطته، لا تجيـد الكثيرات إعطاءه، وأنها لا بـد أن تعرفه تمامًا، لتعطيه ما يبحث عنه ويسعده...

وراح يعرفهـا نفســه.. وسرعان مـا اكتشف أنهـا لا تحفل بذلك.. كأنما كان يكفيها منه ما تعرفه، ولا يعنيها أن تزيد عليه.. وحرص على تقديم نفسه التـي لا تعرفها، فقد كان واثقًا بأن ذلك سيسعدها أكثر.. ولمسـت حرصه ذاك، فخضعت إلى رغبته؛ إرضـاء له، وراحت تستمع إليـه متصبرة، في انتظـار دورها؛ لتعطيه ما تريد هي، غير ملتفتة إلى

مـا يحتاج وما يريـد.. وكان أكبر بكثير مـن أن تستوعب احتياجاته، أو تهتـدي إليها.. قد تكون قدمـت إليه أكثر منها، أو أثمـن، أو ما يفوقها كلفة.. لكنها لم تكن قط ما يريد.

شيئًـا فشيئًا راحت الأماني والأحـلام تهزل وتموت تباعًا. وكان في البداية يحتمل مصابه فيها متجملاً، مؤملاً أن يغنيه ما يأخذ عما يريد، ولكنـه، برغم أنف رجائه، أخذ يقتنع بأن ما يطرح عليه من البدائل قد يسعـد أي رجل غيـره.. واستيقظت في حلقه غُصّة كبيـرة.. ونظر إلى الحبيبـة، فألفاها تهرول مبتعدة عن موقع القلـم منه، بنفس السرعة التي يحلم أن تدنو بها من ذلك الموقع.. أن تدنو فحسب.. فهو لم يحلم قـط بالمستحيـل، وقد أدرك منذ زمان بعيد أن مـن المستحيل أن يبلغ أحد موضع حبه الأول.

وجثـم على صـدره همّ ثقيل، وامتلأت نفسـه المرهفة ألمًا من نوع جديـد.. أما وجـدت فيه ما يخرجـه عن حدود النمـوذج الذي وضعت قواعـد السعادة وفقًا لـه! وتململ حتى الخوف.. فالنفـور.. إنه يرفض بعنـف أن تطبق عليه قواعد يؤمن بها الجميع إلا إياه، واستيقظت ذاته، في دفاع عن تميزها الفطري، الذي لم يكن يملك أن يفرط فيه، إذا لم يسئ إلى أحد...

ألـم تجد فيـه أكثر مما وجدت! وجواهره الثمينـة الثمينة، أين هي منهـا! إنهـا كل ما يعنيـه لنفسه، إنها ما لـن تجده عند سـواه.. كل ما كررتـه على مسامعه عن تميزه واختلافه، وخصوصية معاملته، لا يعدو كونـه يتمتع بالشهرة، وهذا يعني لها كل مـا لا يعنيه أو يهمه.. إنه يعني

الأضــواء والرفاهة والأسفار والتباهي! أمــا الروح التي وراء ذلك، فهي خاصــة به، ولا تملك لهــا شيئًا، بل.. لا تهمها، ولا مــكان لها بين مزايا ارتباطها به...

هل خدعها؟ هذا دأبه.. إنه يبحث عن الخطأ في نفسه قبل البحث عنــه لدى الآخريــن.. مسؤوليته أن يفهمها، أن مــن ترتبط به لن يكون لهذه الأمنيات في حياتها حظ يذكر، وقد لا يكون لها أي حظ...

وداهمه الحرص على دفء الحب بعد ما عصف به من رياح الفكر، وحصر همه في وسيلة رفيقة حنون، توصل إليها ما يريد، فهي أغلى من أن يتركها تعاني لاكتشاف ما يقدر على تقديمه إليها بلا تعب...

جمــع شجاعتــه، وحشد كل مــا يتمتع به مــن قدرة الأديــب الفنان علــى الوصــول إلى العقــول والقلوب: الشهــرة التي يتمتع بهــا قلمي، يا حبيبتــي، لا أتطفــل عليها أبــدًا، ولا أسمح لنفســي أن أجني من ورائها أي مكاســب.. أمــا الأضواء التي تسلط على أعمالــي، فلا أسمح لها أن تصــل إلى خصوصيتي، إلا على أضيق النطق التي تقتضيها الضرورة.. وإذا كان لا يحق لي، وأنا أنشر خطرات فكري وخلجات روحي، أن أدعي أن حياتــي ملك خالص لي، فأنــا أقدمها كتابًا منشــورًا، يقرؤه كلٌّ كما يريد، ولا أقرؤه أنا لأحد.. وأما الرفاهة التي تتصورين، فلا يملكها أحد مبدع مخلص لنفسه وإبداعه.. وأما المكانة الاجتماعية فقرائي الذين يقدرون كلمتي أبعد ما يكونــون عن الطبقة المخملية المسطحة التي لا أعتــرف بها، والتي تتبوأ قمة الهــرم الاجتماعي الوهمي.. وأما التباهي فهو ملك لك، إن اقتنعت بي كما أنا، فملأت عليك نفسك...

استمعــت إليه بنظراتهــا الطفلة التي يحب، وحيّرتــه تلك المهاوي مــن الفراغ التي تراءت له من ورائها، وخــادع نفسه مكابرًا.. فعلامات المفاجــأة قد تختلــط، ولا سيما في عينين طفلتيــن كعينيها، بعلامات الاستنكار أو الخيبة...

أرعبته الكلمات، لكنه ألجم الرعب، وراح يجاهد في تضمين لهجته من الحنان ما يطمئنها إلى أن ما يقوله لا يمس حبه الكبير لها، وهو ما يفترض أنــه الأهم في الأمر.. وشعر بأنه قد نجح في تقديم نفسه على حقيقتهــا، من دون خداع أو تمويه.. وبخوف مبهــم الماهية والأسباب، انتقــل إلــى حديــث آخــر.. أراد أن يعطيها فرصــة للتفكيــر فيما قال، واستجابــت بصمت، وانتهى اللقاء، كما ينتهي كل لقاء بينهما، بالاتفاق على موعد جديد...

ولم يرها بعد.. وقال له صاحبه، وهو يحاوره: يا صديقي، لقد خدع كلاكما بالآخر، رأت شهرتك الواسعة وصيتك الذائع، وبهرها مظهرك الأنيــق ووسامتك، فتصورت ما يحقّ لها أن تتصــور.. ورأيت اهتمامها وجمالها وبراءتها، فتصورت ما يحق لك أن تتصور.

صمــت شاردًا، وهو يحس أن واديًا سحيقًا يفغر فاه بينه وبين دفء الحيــاة ومتعتها. ونظر أول مرة بتمعــن إلى هنــاك، إلى الحافة المقابلة البعيــدة البعيــدة.. ومرت بخيالــه كومضة إمكانية العبــور.. ثم مركبة واحدة، ثمن التذكرة فيها إخلاصه لنفسه وعشقه الأول والأقوى للقلم.. وفكر بمرارة وعجب.. هل أملك هذا الثمن؟!

تــراءت له عرائــس قلمه، ونبض قلبــه، وذكريــات المشاعر الحية الحرة المدلة، التي أدمنت وداده وإخلاصه، ونكهة استفراغ الأحاسيس،

حلوهـا ومرهـا، وهـي تنسكب من روحـه وكيانه على الـورق، ولحظات وساعـات وليالـي العشـق الطويلة للحـرف، عندما يغوص فـي أعماقه يستنطقـه الفكـرة والإحساسـ.. وأيقن، بمـا لا يدع مجـالاً للشك، أنه أسيـر ذلك الحـب الأبدي، وأنه لا يملك القدرة علـى المساس به مهمًا كان الثمن ...



زوجة قائد

- ١ -

أبو محجن الثقفي

أصواتهم تملأ أذني، والجلبة تتسلق الهضبة، والليل، وجدران المحبس المحروس، وتناديني.. كل ما في يشتعل، وأنتزع جسدي من الفراش، بل يلفظني الفراش برمًا بالحرب العبثية الضروس التي أخوضها منذ ساعات فوقه.. يموت الحلم المسخ في مهده، وتصحو أثقال كالجبال تشدني إلى الأرض.. أما الأصوات فهي ما تنفك تناديني، ولا تترك لي وقتًا حتى للألم...

جرجرت جسدي الثقيل الذي لا أسكنه إلا وقت النوم.. قعقعت قيودي البليدة، فلم آبه لها، ولم يعنني كثيرًا أنها ستوقظهم، وربما قلت لنفسي: فلتفعل.. فتح أحدهم مصراع نافذة فأطل الليل كله، وتأفف بصبر نافد: ألا تدعنا ننام؟ ما زال الفجر بعيدًا...

ولم أرغب في الكلام، فلبثت في مكاني متماوتًا.

كم بيننا وبين الفجر؟! كم بيننا وبين تلك الساعة التي تشهد منذ أيام تحرقي وانسحاقي تحت ضربات مطارق الندم؟ أيتها الجرعات القاتلة.. كل هذا ثمن! كل هذا!! وانخلع قلبي، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾: غفرانك.. غفرانك.. غفرانك ..

احتقنـت أجفانـي، انبعث منها رماد حار واخـز، وأحسست أن كلاًّ منهـا سور ليس لـه باب، داخله فيـه العذاب، وخارجه ذلـك المشتهى المحرم، ذلك الشوق الـذي تصميني سهامه، غير مبالية بتحرقي إلى الموت على شفار السيوف، في عناق تبقى لذته في الوجدان خالدة...

أيها الموت.. أريدك هنـاك.. أريدك معهم.. في تلك الساحة التي تنطلـق منها الطريق إلى رضا اللّٰه وفردوسه، أريدك خطوة إلى الحياة الحقيقيـة، إلـى الخلد الموعود، إلى إعلاء كلمـة اللّٰه.. لن تأخذني من هنا كمدًا.. لن تفعل أبدًا...

أطلقـت عيني عبـر القضبـان الحديدية إلـى السمـاء، وتجاهلت المرجـل الموجـع، عللت بكل مـا أملك مـن الإحساس بالقهـر والندم والألم، وانصرفت إلى ذلك الصديق الذي أثق به: الآن يا عمرو.. يجب أن تهتدي إلـى الطريق. سؤال واحد ينبغي أن تجيبه قبل بزوغ الفجر.. قبـل بزوغ الفجر! هل يحتـاج الأمر إلى التستر؟! أجـل، فسعد هنا.. يا للعلـة! لو أنه فـي الميدان لـكان الأمر أكثـر سهولة.. لـكان في مكنتي الهـرب إلى الميدان، وليس مـن الصعب تجنب سعد هنـاك، حتى إذا مـا علمت بتوجهه إلى محبسي وأغلالي.. ولكن! لِمَ لا أقوم بذلك الآن؟ أخرج ليلاً وأعود عند الفجر؟

بقـي السلاح والفرس.. أما السلاح فمبذول كثير، ويمكنني أخذ ما أشاء منه بتدبير بسيط، وأمـا الفرس! فما أجد، لتحقيق حلم يراودني منـذ وصلت القادسية، أفضـل من هذا الظرف.. البلقـاء فرس سعد، الحبيسـة مثلي، المشوقة إلى الميـدان مثلي، المتحرقة إلى وطء هؤلاء

الأشرار المتطاولين، مثلي.. واثق أنا بأنها في حاجة إلي تمامًا، كما أنا في حاجة إليها...

والآن أستطيع التفرغ لتدبير أمر الهرب.. من ذا الذي يقدر على مساعدتي؟

وومضت صورتها كالبرق.. ملامحها السمحة القوية توحي بالثقة، ولكن.. هل يمكن امرأة مثلها أن تعطي نفسها حرية التصرف من دون الرجوع إلى زوجها، وهو القائد، والحاكم هنا؟! ولِمَ لا؟ .. أليست أم ولد سعد الأثيرة التي يحرص على اصطحابها في السلم والحرب!

عُرام رغبتي يجرف كل العقبات دون التجربة.. حتى لو لم أنجح، حتى لو لم تستجب إلى توسلاتي، حتى لو علم سعد بما فعلت، فلن أخسر الكثير.. إنها الفرصة اليتيمة التي تبرق في حافات ليل اليأس الثقيل.

الفجر تعفي على شحوبه الفضي الهش شمس الصباح المتقحمة الجسور، تغمر الهضبة المشرفة على السهول وميدان المعركة.. كل همي الآن أن يغطي ضياء الشمس ذلك المنبسط على يمين الباب الفرعي للقصر، وتخرج النسوة للتمتع بدفئها. سعد من نافذته لا يستطيع رؤية تلك المساحة المحاذية للجدار، وعلي التحايل للوصول إلى هناك.. تلك الخادمة العجوز التي تجلس هناك بعض ساعة كل صباح.. ما من وسيلة سواها للوصول إلى زوجة القائد.

* * *

جرجـرت قيودي أختصر المسافة التـي تقطعها المرأتان للقائي.. اقتربتا واقتربت، وقد نسيت كل شيء حتى عربدة أنفاسي في صدري.. وقفـت أمـام زوجة القائـد لاهثًا، أو متشاغـلاً باللهـاث، لأجمع شتات نفســي. وكان حديثًا سريعًا مسروقًا من الأعين والآذان، فهو البلاغ، ولا شيء إليه: هل لك إلى خير؟

رمتني بنظرة مستطلعة مستغربة: وما ذاك؟!

– تخليـن عني، وتعيريننــي البلقاء، فلله علــي، إن سلمني الله، أن أرجع إليك حتى أضع رجليّ في قيدي، وإن قتلت استرحتم مني.

لـم تكد عبارتـي الراجية تنتهي حتـى أدركت مبلـغ المفاجأة التي أفصحـت عـن ملامحهـا.. وانكمشـت وقد ملأنـي الارتبـاك والندم علـى تسرعي وتطاولي، بـل وقاحتي.. ألقت زوجة القائـد نظرة أخرى متسائلة، فأدركتُ ما لم تشأ أن تقوله: ما الذي يبرر كمية الثقة اللازمة للتفكيـر فيما سألـت! وقرأت خلـف الصمت: أنت، كمـا أعرف، متهم بشـرب الخمر، ولعل مـن غير الصواب أن أثق بـك. وتحولت عني، في مزيج من الإشفاق والحذر والزجر: وما أنا وذاك؟ واستدارت مبتعدة.. نظرت فلـم أرَ إلا ظهر الخادمة العجوز تتقلقل، لاحقة بسيدتها. ولبثت حيث أنا، فقـد كانت أغلالي ثقيلة كأعظم جبال الطائف، ولم أستطع، وقد غادرتني شحنة الأمل المُحْيية، زحْزَحتَها.

* * *

- ٢ -

سلمى بنت حفصة

- يجب أن تلزم الفراش يا سعد.. أنت هكذا تطيل أمد مرضك.

- أنى لي هذا، والميدان شعلة تتصاعد حتى السماء! والقلب يثب في الصدر حتى يكاد يقوضه! وعبارتك الظالمة تطرد النوم كلما سولت له نفسه الدنو من أجفاني.

- كانت نفثة فجّرتها الغيرة على جند الله، ولم أقصد الإساءة إليك.

- لو كانت هذه الرعدة الخبيثة رجلًا لفلقت رأسه بسيفي.

يا لسعد ويا لحوارنا الذي مللت!.. لن يترك السطح إلا محمولاً على أيدي الرجال ضعفًا وإعياء.. ما الذي يراه والليلة لا قمر فيها؟!

أصوات الميدان لا تبدد وحشة الليل، بل تزيدها.. ولا أحد أبادله الحديث.. ولا نوم يسمح به القلق وجلبة سعد ورجاله. يجب أن أجد مخرجًا من هذه الحالة المرهقة.

ليس هذا فقط ما يسرق النوم من عيني، فهناك ذاك الفارس الكسير! إلى كم من النذالة والانهزامية والجبن احتجت لكي أصنع ذلك المزيج العجيب من الرجولة والانكسار! وإلى كم من الأيام، وربما السنين، سأحتاج للتخلص من العذاب الذي ملأني به انكساره ووجومه! لو أنني كنت أكثر روية.. لو أنني أتحت له المزيد من الوقت، فربما كان

لديـه ما يقوله، وربما كان من الخير أن أجيب ما طلب.. ما العمل الآن، وأنا لا أستطيع لهذا الإحساس بالذنب دفعًا؟!

أعالـج فضـولاً عجيبًـا لمعرفة ما آلـت إليه حاله، فقـد أجد بعض العـزاء إذا ما عرفت أنه ليـس ذلك الإنسان المرهف، الذي يجرحه ما قابلت به رجاءه من برود وصلف، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

يا للأرق وما يثيره من أفكار، وما يبعثه من شجون! ويا للوحدة وما تنسج من ملاءات الكآبة والقلق حول الروح والقلب! لعل شيئًا من نسيم ليل العراق البليل يحمل إلى جفني النعاس، فأريح النفس والجسد بغفوة قبل انبلاج الفجر.

يـا لليلة! ويا لجلبـة أولئك المتمردين المحتجزيـن!.. كان أحدهم ينشدهـم شعرًا.. مـاذا يقول سجين في معركة لا يجـد فيها سيفًا، ولا يمتطـي فرسًـا، ولا يواجه عـدوًّا!.. ليت سعـدًا يعفو عنهـم، ويلحقهم بالمجاهديـن، فقد نالوا ما يستحقون مـن عقاب، جزاء ما أحدثوه من بلبلة وفوضى في صفوف الجيش...

ليتني أستطيع سماع ما يقول ذلك المنشد.. أستطيع ذلك إذا نزلت إلى الشرفة القريبة من محبسهم...

... حسناً من هنا يمكنني ...

أنصت ولا تعقب يا هذا.

حسن.. أكمل يا أبا محجن...

أبو محجن!! ما أعجب هذه المصادفة!

فَـلِـلَّـهِ درِّي يــومَ أتـــركُ مـوثـقًـا
وتـذْهـلُ عـنِّـي أسـرَتِـي ورجـالِـيَـا
حبيسًا عن الحربِ العوانِ وقدْ بدَتْ
وإعْـمـالُ غيـرِي يَـومـذاكَ العـوالِيَـا
وَلِلّه عـهـدٌ، لا أخـيـسُ بـعـهـدِهِ
لـئِـنْ فـرِّجـتْ ألا أزورَ الـحَـوانِـيـا

... لقــد سمعتــك أيها الفارس.. وما أحسبــك إلا قصدت إلى ذلك قصدًا ...

أما النوم، فما عاد إليه من سبيل، وأما خطئي، فأسأل الله أن ييسر لي السبيل إلى التكفير عنه.

مــا مرّ بي سحــر، ولا فجر أطول مما مر بي فــي يومي هذا.. لماذا تتضاعــف المسافة، ويتطاول الزمن دائمًــا بيننا وبين ما ننتظر! لماذا تبتعد الأشياء عندمــا نمد إليها أيدينا! أيكون ذلك اختبارًا، لتصميمنا وعزيمتنا وصبرنا، نستحق بعده التلذذ بالوصول إلى الغاية!

- ٣ -

سعد بن أبي وقاص

إلــى متــى ســتلازمينني أيتهــا القشــعريرة المقيتــة؟ أيها الوهن العنيــد، مــا أضعفني أمامــك! أنا الــذي أقف أمام جيوشــ فارس غير

هيّـاب.. لا رجـل بلا سلاح اليـوم إلا أنا، وهؤلاء المتمـردون الأغبياء، وذلك الشاعر السكير الفار من ابن الخطاب...

أيـن تتوارى تلك المـرأة التي لا يمكن تجاهلهـا !... : سلمى.. أنت الأخرى أصبحت تدمنين النظر من الشرفات؟

- ومتـى كففت عن ذلك ما دارت المعركة! ولكن الليل لا يسمح برؤية مـا يجري هناك.. ألا تلزم الفراش يـا سعد؟ يجب أن تبرأ سريعًا، فقد طال غيابك عن الميدان...

- أنت لا تنفكين ترددين ذلك.. كأني بك ما تزالين تتهمينني بالتعلل بالمرض...

- كـم مـرة يرضيك أن أعتـذر بعـد؟ كان موقفًا مرّ بـي فيه هاجس صارحتك به...

- حسـن.. لن أستطيـع لزوم الفراش الآن.. سأصعـد السطح؛ عله يسمح برؤية أفضل، فقمر الليلة لا يعد بما ينقع الغُـلّـة...

لقـد بتُّ ضيـق الصدر نافد الصبـر.. أعرف مـا يخيفني إلى حد الهلـع.. يا رب السمـاوات والأرض، منذ يـوم الخندق وأنـا أحلم بفتح فارس.. كأنني أراهـا، هنا في القادسية، ومضـة معول رسول الله ﷺ وقد ضرب صخرة الخندق، وكأنني أسمعها، هنا في القادسية، تكبيرته وهو يبشرنا بفتح فارس.. لقد عاش الحلم معي عشرًا من السنين، فهل يموت اليوم، وأنا قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه!

أهـو الظلام يـكاد يلبس علي ما أرى !.. أم هـو الشوق إلى الميدان وصهـوة البلقاء.. فارس الأمس وفرسه.. لم أكن واهمًا إذًا، وهذا الذي أرى حقيقة، وليس من نسج الخيال أو وهمه...

أي فرس تلك التـي تشبه البلقاء هـذا الشبه العجيـب.. و تماثلها حتى أكاد أشك في كونها البلقاء عينها. وأي فارس هذا الذي يفعل على صهوتها الأفاعيل! كأنني أرى فارس ثقيف أبا محجن...

لـك الله يـا ابن الوقاص.. لقد غـادرت الفارس والفرس كلاًّ في محبسه وقيده، إنها العلة تلبس عليك المرئيات، وليس الظلام.. سلمى على حـق، وسألزم الفراش متى تحاجز النـاس، وما أظن ذلك ببعيد، فقد انتصف الليل.

سلمـى مستسلمـة إلى النوم، لقد أرهق تواصـل القتال، حتى من لا يباشره، وسآوي إلى فراشي بعد رؤية ابن عرفطة؛ لأعرف ما لم أستطع استجلاءه من مرقبي هذا.

هل تحاجز الناس يا سعد؟

- لستِ بنائمة إذًا؟

- وأنـى أستطيـع، وأنـا أسمـع قعقعـة السـلاح، وتنـادي الفرسان، واصطكاك أسنانك ورعدتك!

- سآوي إلى الفراش بعد رؤية ابن عرفطة.

- فما كان آخر ما رأيت؟

- إنهــا جولة شديــدة الوطأة، ولكــن اللّٰه قيض للمسلميــن فارسًا ما استطعــت أن أتعرفــه، أبلى بــلاء المتعطش اللهفــان، فاحترت في أمــره، وظننــت فيه الظنون، فقــد شبه لي، كما شبهــت لي فرسه، حتى خيل إلي أنني أمام أبي محجن والبلقاء.



منشورات رابطة الأدب

الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.

٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.

٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.

٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.

٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.

٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.

٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.

٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.

٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.

١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.

١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.

١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.

١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.

١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.

١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.

١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة الحمد.

١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.

٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.

٢٤- الآمال صارت آلاماً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.

٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزدبناه.

٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.

٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.

٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.

٢٩ - عقد الروح - ديوان - شعر نبيلة الخطيب.

٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية- فاطمة محمد شنون.

صدر في سلسلة أدب الأطفال

١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور - د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.

٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.

٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.

١٠- شيماء - قصص - حسن القشتول.

١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.

١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.

١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤- ص.ب ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨-٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org

المؤلفة في سطور

● فاطمة محمد شنون.

- من مواليد حلب / سورية عام ١٩٥٠م.
- حصلت على الإجازة في اللغة العربية وآدابها، ودبلوم الدراسات العليا من جامعة حلب.
- عملت في التعليم العام.
- شاعرة وكاتبة للقصة القصيرة، وأدب الأطفال.

● صدر لها عدة كتب منها:

- موكب النور في عدة أجزاء، رواية لليافعين.
- جلجامش- شعر.
- معلمتي السوداء الصغيرة جدًّا- للأطفال.
- المفسدون في الأرض – مجمعة قصصية فازت بالجائزة الأولى في مسابقة الأديبات بالرابطة.

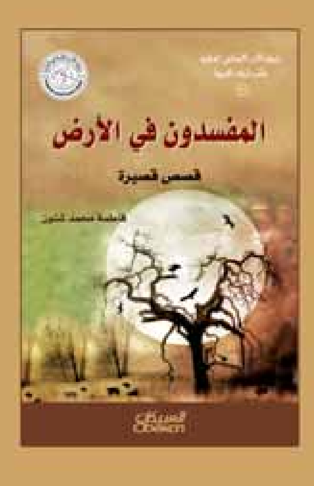
● فازت بالجائزة الأولى في مسابقة نشيد طيبة للأطفال، التي أجرتها مركز بحوث المدينة المنورة لعام ٢٠٠٨م.

● لها العديد من المشاركات في الدوريات العربية، ومنها مجلة الأدب الإسلامي.

● عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.



فاطمة محمد شنون



المفسدون في الأرض

العبيكان